

— تأليف —

جان بروا

نقله عن الافرنسية

محمد صالح البنداق

وسبكه

هاشم الدفتردار المدني

الاستاذ في كلية فاروق الأول الشرعية في بيروت

منشورات دار الانصاف

سلسلة الثقافة الاسلامية

— الكتاب الاول —

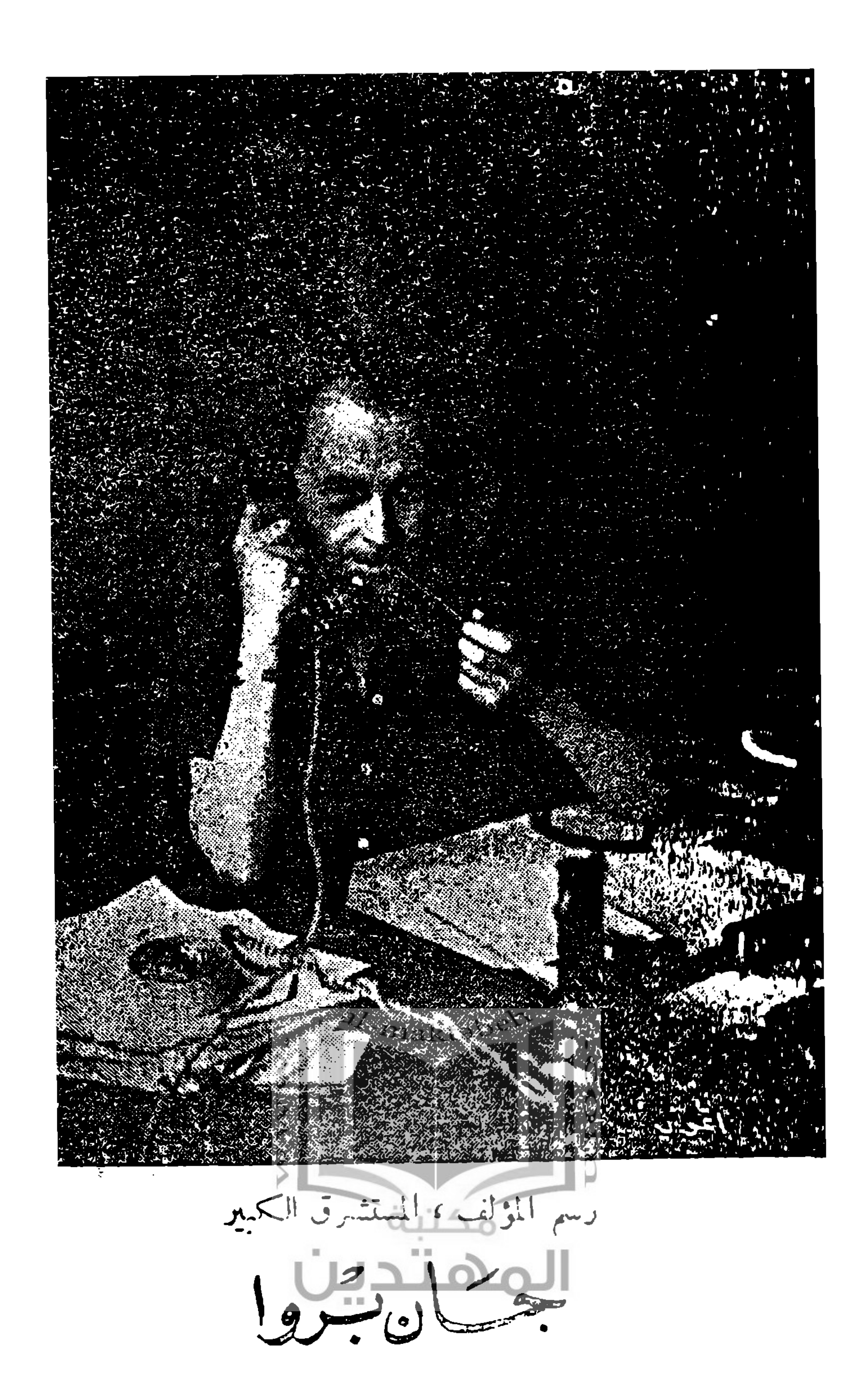
دار الانصاف
للطبع والترجمة والنشر

بيروت — شارع المعرض — ١٩٤٧



رسم المؤلف

فى زيه العربى يوم قام بزيارته الى الأماكن المقدسة سنة ١٩٣٦



رسم المؤلف المستشرق الكبير

جاك بيرك

المقدمة

لقد تطورت كتابة الغربيين ، على وفرتها فيما تناولته من تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم والبحث في تعاليمه وما قام به في هذا العالم من امجاد ، وتأسيس لدين من اكبر الاديان العالمية

اجل لقد تطورت بتطور العقلية العلمية ،وانفلات النفس من اغلال التقاليد ، وقيود الوراثات ، وتأثير البيئة ، وسلطان التحكم العاطفي حتى اصبحنا في اشراق هذا العصر الحافل بالحرية ، والذاخر بالتسامح ، نتلقف بلهفة واكبار ما كتبه المستشرق الكبير ، الاستاذ « جان بروا » عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم

لا ريب انها سيرة من طراز جديد في تحري الصدق ، وقصد التقيد بالواقع ، والتبسط في جمال الاسارب ، والتفنن في التبويب والسمو ، والتنائي عن الاسلوب العلمي الجاف .

والمؤلف قاصد لهذا التحقيق ، والصدق ، والتقيد بالواقع ، اذ يقول :

« ولقد كتبت مؤلفي هذا لاقدم للأوروبيين صورة النبي الحقيقية كما هي في ثوبها التاريخي الحقيقي فان كثيراً من الفرنسيين يحسبون ان محمداً هو صورة مجسدة للذات الالهية » .

« كما انني حاولت جهدي ان اتناءى عن الاسلوب العلمي البحت لكي اجعل قراءة كتابي هذا فاتنة جذابة مع التقيد بالحقائق التاريخية العلمية » .

ومؤلفنا هذا كاتب عشق الحقيقة الاسلامية، وفتنته شخصية النبي، وحببت اليه تعاليمه، وجعلته يبذل جهوداً جبارة في دراستها، والنظر فيها، والكتابة عنها. وهو ككل مستشرق، يود من اعماق نفسه ان يرى اثر مؤلفه في العالم الشرقي كما رآه في عالمه الغربي:

«ويسرني ان أرى مؤلفي في ايدي المسلمين بعد ان اطلعت الغربيين على الصورة الحقيقية للنبي».

والذي يدلك على تطور العقلية الغربية الحديثة، وأنها اصبحت تؤثر المعرفة والحقيقة على كل شيء، هو اقبالهم (على ما يكتبه اليهم) «جان بروا» وامثاله اقبالاً شجعه ان يفكر بأن يمحو كل ما كتبه الكاتبون تحت سلطان البيئة، والوراثة، والتقاليد، بقوة وعزم وشجاعة. ولولا ان العقلية الغربية اصبحت تؤثر المعرفة والواقع التاريخي على كل شيء لما قال عن الحروب الصليبية التي ينوي ان يخرج سفراً مجيداً في تاريخها:

«يوم خرجت الفيالق الاوروبية النصف بربرية على حد تعبيره وشنت غاراتها الوحشية على الحضارة العليا فانتهبتها ورجعت باسلابها العلمية وبالمخترعات التي ازاحت بها عن اوروبا ظلمات العصور الوسطى»

* * *

وانا نحسب القارىء العربي يشتد في نفسه باعث الشوق ليعرف شيئاً عن مؤلف كتاب:

محمد، نابوليون السماء

والحديث عن هذا المؤلف الكبير والكاتب القدير، يطول بنا جداً لو اردنا ان نتناوله بتبسط. ولكن يسرنا أن نقول بايجاز ان عاصمة الإفرنسيين سعدت بولادته عام ١٩٠٧ وتثقف بها.

وقد احترف الصحافة والتحق بكبريات جرائدها حتى اصبح رئيساً لدائرة الاستعلامات في جريدة « باري – ميدي » (١)

كما ساهم في تحرير جريدة « باري – سوار (٢)وهو اليوم رئيس تحرير مجلة « ليل ونهار » (٣) وهو مؤلف بارع له غير هذا الكتاب من المؤلفات : « هارون الرشيد شمس بغداد»و« الاسكندر الكبير » و« مكة ، البلد الحرام » .

وكاتبنا هذا وطني غيور ، له جهاده المجيد ، ونضاله الجبار ، في سبيل امته . فقد اشترك في هذه الحرب العالمية الثانية ذائداً مغامراً حتى اسر وسيق الى المانيا ولم يفرج عنه الا بعد نهاية الحرب .

* * *

والى جانب ذلك فقد دفعه حب المعرفة والاستطلاع ان يجوب اكثر بلدان العالم : انكلترا ، والولايات المتحدة ، وكندا ، وتركيا ، والجزيرة العربية ، حتى اشترك عام ١٩٣٦ في اداء فريضة الحج والتشرف بزيارة النبي العربي .

* * *

ولعل قارئنا العربي يتساءل عما لا يتساءل عنه القاريء الغربي ، عن الباعث الذي جعل المؤلف يعطي لكتابه اسم :« محمد» نابليون السماء » .

بيد انه يطمئن الى حكمة هذه التسمية ، ويدرك مغزاها العميق حين يعلم ان نابليون قد كتب عنه في عالم الغرب حتى اليوم ما

---

١ - « PARIS - MIDI »

٢ - « PARIS - SOIR »

٣ - « NUIT ET JOUR »

يزيد عن المئة الف مؤلف . بينها المجلدات الضخام . ولما ينطو القرن الثاني على وفاته بعد . وأن الرد الذي جاء على السؤال الذي وجهته احدى المجلات الأميركية الكبرى الى الف استاذ من اساتذة التاريخ في مختلف جامعات الولايات المتحدة :

= من هو اعظم قائد انجبه التاريخ ؟

= نابوليون ! نابوليون ! .

فلما كانت هذه معرفة الغربيين بعبقرية نابوليون الحربية الخارقة للعادة ، ولما كان مؤلفنا قد امعن درساً في شتى العبقريات التي اختارها الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، اختياراً حافلا بالاقداس والاسرار والمعجزات : عبقريات في البلاغة والقيادة الحربية ، في التشريع والاقتصاد والادارة والدبلوماسية ، في تحرير الامة وتأسيس الدولة ، في المباديء الانسانية العالية ، والتشريع الدولي في النهوض العلمي ، وتحرير العقل ، آثر المؤلف ان يطلق اسم نابوليون على محمد ليعرفه الغربيون ، ونسبه الى السماء لأن الأرض لم تعرف بعد ولن تعرف انساناً واحداً يستطيع ان يتفوق ويحرز السبق المعجز في كل هاتيك العبقريات .

* * *

وقد اعتاد المؤلف ان يعرف للغربيين شخصيات رجال الاسلام باطلاقه عليهم اسماء الشخصيات التي يعرفونها توضيحاً لما يريد عرضه خذ مثلًا اطلاقه على الفاروق الاعظم اسم :

« قديس بولس » الاسلام .

* * *

وفي النهاية نشير باكبار الى ما جاء في « هلال » حزيران ١٩٤٧

« اما المادة المترجمة فمن مذهبنا ان نتجنب الترجمة الحرفية ، اذ انما ينشر في الخارج قد كتب لجمهور غير جمهورنا . فلا بد من التصرف والاقتباس والسبك من جديد » .

لانها هي الطريقة التي بها يستطيع المترجمون ان يهيمنوا على المجتمع العربي وان يقربوا اليه افكار كبار علماء الغرب .

من اجل ذلك تجد كتابنا يشتمل على روح المؤلف الحقيقية، ولكنها في هيكل عربي جذاب ،يطمئن قارئنا الشرقي الى اسلوبه العربي وترجمته اطمئنان القاريء الغربي الى اسلوبه الافرنسي الذي عرض المؤلف به الكتاب نفسه .

وقد جاء هذا المذهب الذي آثره « الهلال » صفعة في اوجه اولئك المتحذلقين ، الذين يريدون ان يعرفوا انفسهم بأنهم يحسنون اللغات الاجنبية فينعقون كل ما رأوا مثل هذا التصرف المقصود للافهام ، والتأثير النفسي،ولكنهم لا يجدون سامعاً لنعيقهم ولا مكترثاً بالرد عليهم .

* * *

ولا يسعنا الا ان نقدم شكر العالم الاسلامي لجان بروا وامثاله من العلماء المحررين الذين ينهضون بالمعرفة الانسانية الى محراب الواقع والحق المقدس ! !

محمد صالح البنداق   هاشم الدفتر دار المدني

الفصل الاول

ارضنا هذه احفل مسرح تمثل عليه الامم ادهش المشاهد واغربها في كل عصر ،استجابة للارادة الالهية المهيمنة على نواميس الوجود. فمنها ادهش المشاهد واغربها، التي تظل خالدة يدوي صداها على مدى الاجيال ، ومنها ما يمر كالاطياف الخاطفة لا يحفل به ولا يدرى عنه شيئاً،وما ذلك الا لأن تلك المشاهد لها مكانتها وحيويتها من الخلود والعظمة،وهذه تافهة لا تستحق حياة ولا خلوداً فليس لها من نداء !

واخلد واجل مشهد مثل على هذا المسرح الارضي الواسع ،كان ذاك الذي قدمته بلاد العرب للعالم في منتصف القرن السابع للميلاد حين اشرفت سنة ٥٦٩ م على نهايتها كان الامبراطور يوستنيانوس الثاني في قصره الفخم في بزنطيه ، يجمع اليه ما خلفه له والده من تحف وطرف واموال وعتاد، ويلملم اطراف امبراطوريته العظمى بعد ان مزقتها فيالق روما،ويستعيد سيادته على العالم الاسيوي والافريقي .

ان هذه الامبراطورية العظمى التي ورثها يوستنيانوس كادت ان تفضي بها الى الفنـاء الاضرابات الداخليـة والفوضى ، التي دفعت الفرس والبرابرة على اقتسام اطرافها ، واكتساح حرمتها، وجعلها فريسة منهوبة فيما بينهم .

ولم تكد تمر على اعتلاء يوستنيانوس عرش بزنطيه اربعة اعوام حتى تهلهلت دولته ، وخضت شوكته ،وتفككت اواصرها ، وانحازت الى التداعي !

هذه الكنيسة نشبت فيها مخالب التمزيق وهذا الشقاق يهدد نفسه

طريقاً رحباً فيملاء ارجاءها في عهد البابا جان الثالث ، فيقف حيال ذلك مكتوف اليدين لا يفعل شيئاً وليس له من الامر شيء ، وهو الذي كان يعتقد ان مملكته ليست في الارض فحسب ....

وهذه المسيحية تمزقها البدع التي ثارت في الشرق وارثتها الاضطرابات التي لبست ثوباً دينياً فأهاجت التفرقة بين اتباعها . فها انت ذا ترى الآريين والنسطوريين والناصريين والاوتيخيين تزعزعهم الفتن وتحط من كيانهم ، وها انت ذا ترى صور القديسين تؤله وتنزل منازل آلهة الوثنيين حتى تصبح شريكة لله تشاطره العبادة والتقديس

هذه بزنطيه ، وهذه رومه ، وهذه دولة فارس عابدة النار ، وهؤلاء هم ارباب النحل والمذاهب كزاردشت وسواه ، وهذا هو كسرى فارس انوشروان ، الذي بلغ من صولة المملكة ارفع الذرى ، واستطاع بما اوتي من قوة وشركة وحكمة وعقل ان يسمو بدولته ويحكم حصونها وتخومها ، فلا يدع فيها ثغرة لعدو ولا مجالا لحاقد اوعائث ينفث فيها التفسخ والانحلال .

هاتان مملكتان تتجاذبان السلطان وتتنازعان على امتلاك العالم وكل منهما في افق يمد من اطرافه ويفسح اكنافه ، انه صراع الشرق مع الغرب وصراع زرادشت مع المسيح ، حتى اذا هدأت المعركة وانطفأت شعلها انبعث صوت رهيب من قلب صحراء العرب يدوي بقهره ورهبته بل ويزلزل الامبراطوريتين ايما زلزال !! ...

وفي الوقت الذي كان فيه الامبراطور يوستنيانوس الثاني والبابا جان الثالث وكسرى فارس يتلفعون بافواف الحرير الناعم ويتقلبون على ارائكهم الوثيرة ، ويستنشقون النسائم التي تحمل اليهم عبير الازهار ولذيذ الاحلام ، وتمر بهم اطياف مملكاتهم وما

اوتوه من نعمة وسلطـان ، وما يرجون ان يؤول اليهم من بـلاد ويفتحوا من اقطار تنحاز الى امبراطورياتهم ، دوّى ، دوّى صوت ذلك الشاب العربي الفسيح الذي وقف في بلاد العرب ، في منى ، قريباً من مكة وقف في ذلك الوادي الفسيح الأجدب الذي لا تضحك فيه حدائق روما ، ولا تبتسم فيه انهار فارس والعراق ، لتغمر اطرافه بالخصب والنماء وبهجة الحياة ورفاهة العيش ، وقف فيه على وعث رماله وشموخ جباله الجرداء العارية التي تكتنفه من كل جانب ، وقف حيث وقف من قبل جده ابراهيم الخليل يقدم قربانه ، وقف ينادي بصوت داوٍ رهيب ملاءمسا مع الامصار والاملاك وذوي السلطان: « الا فليعلم الناس جميعاً ، اذا كان ثمة في محراب التاريخ المقدس الخالد روما ، وبزنطيه ، فهناك ايضاً في صدر ذلك المحراب ، يجب ان تشمخ بلاد العرب ».—

* * *

في الجزيرة العربية التي يغمرها الجدب ربت في قلبها تحت ظلال البيت وتكاثرت انسال اسماعيل . انها الجزيرة المخيفة التي وقف حيالها ملوك الفرس واليونان والرومان وسواهم ، وهم اقوى شعوب الارض واشدهم مراساً ، واكثرهم جنوداً ، وقفوا خاشعين عاجزين لا يستطيعون قهرها بل ولا يستطيعون اقتحامها .

اجل !! اجل !! ها هو ذا الاسكندر المقدوني الذي لم يدع بلداً الا وفتحه ، ولا قطراً الا واجتازه ، يقف حيال جزيرة العرب بعد ان دوّخ العالم واسقط العروش والتيجان ، يقف حيال تلك الحصون الطبيعية التي انزلها الله رمالا تطمس الاعين ، وعواصف تجتاح الجنود وصحاري لا يقتحمها الا الموت والفناء ، وجبالا شامخة لا يقوى على

تسلقها متسلق ، وقف مبهوتاً مأخوذاً ، تخاذلت كبرياؤه حيالها ، وتداعت شوكته وهو يستمع الى نصيحة احد قواده « لا تفكر في اقتحام جزيرة العرب » وينذره بالتمزق والفناء العاجل ان هو غامر واقتحمها !!..

اجل ! هي جزيرة العرب ! السماء حصنتها ، والطبيعة احتضنتها بمناعتها وجبروتها وبطشها وارهابها ، تفتك بكل غاشم جبار ، وتبطش بكل عنيد مستكبر .

والعرب انفسهم امة ذات مراس شديد ، تفتدي الحرية بالانفس وتهوى الاستقلال ، وتعيش في موطنها عيشة الاباة ، تنتجع مواطن الكلأ ، وترتاد ينابيع الماء ، قلما يطيب لهم المقام تحت السقوف ، بل يستخفون مساكنهم يوم ظعنهم وينتقلون بها حيث يطيب لهم العيش ويحتضنهم الخصب .

تفتنهم سماؤهم الصافية ويروعهم ائتلاق النجوم وانسكاب اشعتها المشرقة على خيامهم ومواشيهم .

انهم يعيشون عيشة قبلية ، تغير كل قبيلة على سواها ، ويغزون ، وفي الغزو مناط حياتهم . ليست لهم حكومة مركزية يحتكمون اليها ، وتنظم لهم حياة الاجتماع ، وليس لهم دستور يستمدون منه الامن سوى عرف الصحراء الذي يفرض الرئاسة للقوي على الضعيف وكلهم ابطال اشاوس مرنوا على النضال والكفاح فالضعيف لا وجود له بينهم . . .

والذرية في القبيلة اعظم ثروة يفاخرون بها واجل متاع ، بل هم عمادها الذي يعتمدون عليه في مغالبة البقاء واستمرار الحياة .

ومجموع القبائل متنافرون متناحرون ، وانى يكون لهم الوفاق

وليست لهم دولة ولا امة ولا شرائع يستمدون منها الوحدة والقوة ليكونوا امة واحدة ؟! نثرتهم ايدي سبأ مطالب العيش الجديب ، واوغل فيهم عداوة وتفاخراً الروح القبلي ، فجعلهم متفرقين ، وهم فرحون بفرقتهم ، اعداء وهم مسرورون بعداوتهم .

* * *

آلهتهم ما ينحتون من احجار ، وما يتخذون من اصنام يعكفون حولها ويزعمون انها تقربهم الى الله زلفى . ومنهم من كان يعبد الشمس والقمر والنجوم والجن . وكم كان يسبح بهم خيالهم في افلاك السماء ، فيرون وراءها ارواحاً تسكنها وتجريها في مجاريها وتمتلك نواميس الكون .

مكة تحتل قلب الجزيرة العربية والقبائل حولها من كل فج عميق يحجون اليها في كل عام ، ويستنشقون في ظلالها ارواح السماء ، فجلت في انفسهم مكانتها ، وتقدست وتعالى اسمها حتى اصبحت اكبر مركز تجاري تمر به القوافل ، وكثر سكانها ، وانشأوا الدور والمنازل حتى ذكرتها الكتب القديمة ، وجاء ذكرها في الاديان والروايات التاريخية : مكة هي اقدم بلد في العالم نُعم فيها آدم وحواء ، بعد ان اخرجها الله من جنته ، وتعارفا في عرفات بعد ان حرما من نعمة الاجتماع في السماء ، فاي جبل نال من الحظوة ما ناله عرفات ؟ ! . .

وفي مكة انزل ابراهيم ولده الحبيب اسماعيل وامه هاجر وبها شيد بيت الله ، وفيها تفجر ماء زمزم المقدس ، تحت قدمي اسماعيل ، وكما ان الله منّ على اليهود بان جعل جدهم اسحاق ، فقد من على

العرب المستعربة بان جعل جدهم اسماعيل . وهذا هو الحجر المقدس ينزل به جبريل من السماء ابيض ناصعاً كوهج الشمس هدية الله الى ابراهيم واسماعيل ، فأقاماه في ركن من اركان البيت علماً للطائفين وهدي للركع السجود . اوّاه ! ولكن آثام الناس وجرائرهم لم تزل تغشيه بسدفة قلوبهم حتى استحال ذلك الكوكب السماوي على تعاقب الاجيال ،اسود حالكا كجنح الليل ،يالله كم للبشر من اوزار !..

اجل ! في مكة بيت الله ! وهو مستقر افئدة العرب ، ومهوى نفوسهم ، اليه يحجون من كل حدب وصوب وفيه يستلهمون السماء ويستوحون الارواح . وحول البيت شيدت منازل التجار وقصورهم وذوو المكانة في قريش .

ان مكة ثابت لها الرئاسة الدينية كما ثابت لها الرئاسة التجارية فهي مركز التجارة وممر القوافل الآتية من اليمن والذاهبة الى الشام ، اذن فالحضارة عريقة في بلاد العرب ولها صلة بحضارات الامم القديمة : الهند والحبشة والصين والروم والفرس ، صلة من الناحيتين : المادية والروحية . انك ترى القوافل تجتاز طول الجزيرة وعرضها مثقلة بالمعادن الثمينة والحرائر والعطور والاحجار الكريمة والتوابل والصموغ والتمور ، وتثوب بالقمح والزيت وانسجة الكتان والعتاد الحربي الذي كان يصنع في دمشق .

ان مكة كانت جمهورية تجارية ومركز زعماء القوافل على الرغم من محل واديها وجفاف ارضها وشح مياهها ولكنها ازدهرت بالتجارة وتوفر فيها كل شيء مما لم يتوفر لبلدة سواها في جزيرة العرب .

وقريش كانوا سادات مكة واشرافها ، هم احسن العرب وجوهاً

واعرقهم محتدا واسماهم شرفاً . وغرة قريش التي تزهو بها وتفاخر، هم بنو هاشم ، اليهم يرجع امرها ومنهم ينبثق السلطان والنفوذ ، لهم الكلمة العليا التي لا تطاولها كلمة . وعبد المطلب زعيم الهاشميين وكبير قريش ، هو عقلها الحكيم ومستشارها لدى النوازل والملمات !

تراهم ابداً حوله كالهالات يستمعون اليه ويصيخون ، هو الحكم العدل الذي لا تخيفه غطرسة المستكبرين ، ولا تحيد به عن الحق ولا يستهويه زخرف المادة ولا يغويه انه جواد كريم لا يخيب لديه رجاء ، يبذل عن سعة ، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، حتى نضبت ثروته وشحت بين يديه الاموال ، ولم يبق له من قوة سوى بنيه الابطال يعتز بهم ويمتنع اذا حزبه الامر .

هؤلاء البنون الذين لم ينلهم الا بعد صبر وجهد ، اما رأى نفسه مستضعفاً حين ظفر بالسلاح وهو يحفر زمزم فلم يستطع ان يدفع عنه عدوان قريش واطماعهم ، انه ادرك منذ ذلك اليوم ان في البنين لعزاً وقوة ومنعة ، فنذر وهو على اشد ما تكون اللهفة للذرية ، لئن رزقه الله اثني عشر ولداً ليقدمن احدهم قرباناً لوجهه .

وكانت السماء مصيخة الى دعاه ، فما اسرع ما اقبلت عليه الذرية وتهادى اليه البنون ، حتى استووا بين يديه اثنى عشر ولداً .

النذر ! النذر ! الوفاء ! الوفاء ! لم ينعم بعد ذلك بطيب العيش ولم يغمض له جفن ، انه وفيّ ، انه مؤمن ، ما اعتاد ان يعبث بحقوق الآلهة .

اعتزم ان يقدم القربان ولكن طيف الحنان كان يأخذ بمجامع قلبه ، وبالاحرى ، كلما شاهد اولاده يروحون ويغدون حوله ،

كيف يضحي باحدهم وليس فيهم ما يستطيع عنه صبراً ،
كيف يرضي و كلهم في شرك القلب سواء ؟

ولكن حقوق الآلهة اكبر واجل من الابناء مهما يكن التعلق بهم والحدب عليهم . الآلهة ! الآلهة ! انها جبارة ، انها تنتقم لنفسها ، لعلها بعد ذلك لا ترضى بهم جميعاً فداءً اذا سخطت . العجل ! العجل ! البدار ! البدار !

ها هو ذا يتقدم فيضرب القداح وحوله زعماء قريش وملاء بني هاشم ... ويحه ! ويحه ! ماذا يريد ؟! يستدير السهم الى آثر بنيه لديه واحبهم ، الى عبد الله ، انه لايرضى ان يموت هذا الغلام ، ولكن ما يصنع ، والآلهة الجبارة منتقمة ؟ كيف يرضى ان يكون عبد الله الفداء ولماذا اختارته الالهة ، ان فيه لسراً عميقاً .

ها هي نساء مكة تنهمر دموعها ، وهؤلاء الشيوخ يعنفونه حينما يرونه مصراً على قتله وتقديمه للالهة ، وها هو يتناوله لكي يقدمه ذبيحة لالهته ، ولولا ان جذبه ملاء بني هاشم منه ، وارغموه ان يلجأ الى كاهنة مسيحية لكان عبد الله ذاته الفداء ! !

امرته باجراء القداح تجاه عشرة من الابل لكل مرة يقع السهم على ولده عبد الله احب بنيه الذي ارادته الالهة ان يكون قرباناً لها حتى ترضي . هنا طاب له العيش ورضي عن الحياة .

وهكذا ظل يضاعف الابل ويوالي السهام حتي بلغت السبعين وافتدى اخيراً عبدالمطلب ولده عبد الله ، لامر يريده الله ، كما افتدى ابراهيم ولده اسماعيل الذبيح .

هذا هو عبد الله والد محمد نسبه يتصل الى ابراهيم . سلسلة من

الذهب كل حلقاتها يمن ونبل، واسم كبير يملا التاريخ فخاراً ويملاء النفس اعجاباً واكباراً . فهو ابن محتد كريم وارومة رفيعة تعتز بها العرب ، وتسمو على العجم .

عبد الله ، هو فتى قريش ، تراه وضاح الجبين ، مشرق المحيا صافياً صفاء المرآة ،ينبثق في وجهه النور انبثاق الاشعة عن الشمس، عيناه سوداوان ، يزيد في سحرهما اهداب اجفان وطاف، ويجذب النظر اتساق انفه وجمال فمه وتموج شعره المجعد . كان فاتنـاً جميلاً وكان كل ما يمتلكه من ثروة هي الفتنة والجمال . لا ! لا ! بل كان الى جانب جماله وعلى كرم محتده عزيز الجانب بطلاًقوياً شديدالاسر، انه يسير في مكة والعيون ترمقه والاصابع تشير اليه .

ها هو ذاهب ليؤدي نسكاً واذا به حيال فتاة رائعة الجمـال فاطمة الخثعمية ، تغريه وتمعن في الاغراء ، يمتلكها جماله وتسحرها فتنته ، تتطلف له بكل ما تملك من ود وجاذبية وتجمع حيلتها لكي تغويه بعد ان رجمت الشيطـان بجمراتها وحاول ان يرجم : « من انت ايهـا الفتى ؟ » — يطرق قليلاً ثم يقول : « اني عبد الله » ، وكلما حاول ان يقتضب اطراف الحديث تمده مداً وتسير بـه هنا وهناك ، حتى اذا احست منه الملل طلبت اليه ان يزورهـا عشية لتقدم اليه مائة من الابل هدية .

ولكن عبد الله لم يحتجب عنه غرضها من وراء هذه الهدية لانه كان مهذباً سامياً ، يعلم نهاية هذه العروض المغرية ، وما وسعه الا ان تسلل من بين يديها ناقصاً على عقبيه ، ليلقى زوجه الطهور آمنة .

ترصدته فاطمة في اليوم التالي على افواه الطريق، ومناكب الدروب التي تؤدي الى منى ، فطال بها الترصد ، وهي تكاد تأكل الطرقات

بعينيها ، وتبتلع الاشباح ، وكم كان قلبها يخفق ونفسها تهوي اليه حين رأته مقبلاً يتهادى على قارعة الطريق ، فهمت اليه و كلها امل و كلها رجاء . ولكن لم تكـد تنظر اليه حتى تداعت في مكانهـا وسكن وجيب قلبها ، وتراخت عنه ، و كأنها لم تكن بالامس هي التي كانت تطارده .

خابت وندمت ، لانها شاهدت بالامس شعلة السماء تشرق بين عينيه ، وتضيء وهاجة كصفحة القمر ، او جبين الفجر ، واليوم ، وقد فقد تلك الشعلة وغاب ذلك النور ، ما وسعها الا ان تقول له طالعت في وجهك بالامس نور النبوة ، تؤذن به البشائر ، واليوم قد غاب ، وكان جل رجائي ان اكون مصدر ذلك النور وام ذلك النبي !

حمل عبد الله شعلة النور وادّاها الى آمنة بامانة وقدس ، ومثل دوره الذي انتدبته له العناية الالهية ، ولم يكد يمعن في الصحراء بعد اشهر سبع بـين اترابـه من شبـاب قريش ، الذين يرتادون الشام لمتاجرهم ، ولم يكد يستقر به المقام في يثرب ، في بيت اخواله من بني النجار ، حتى لفظ نفسه الاخير !

ولم يمر على وفاة عبد الله سوى شهرين ، حتى وضعت زوجه الطهور آمنة طفلها العظيم ، في الثاني عشر من ربيع الاول في شهر آب سنة ٥٧٠ م .

هذا جده عبد المطلب يوسع في وليمته ، ويدعو اليه رؤساء بني هاشم ، وهو الشيخ الوقور الذي اشتعل رأسه شيباً ، لم يقصر في ندى . انه يطعمهم كل مـا تشتهيه الانفس وتلذ الاعـين ، يطوف عليهم وبين يديه وليده الحبيب ، يضمه الى صدره ضماً رفيقاً وحنوناً

وقد ترفق وحنى عليه ساعده على الرغم من خشونته فكأن بين يديه وضاءة يسطع بالاشراق كالمشعل الوهاج الذي يسلمه العداء المنهك الى الذي لم تزل فيه نار الحياة في تأجج واستعار ! ! ...

كم هو عظيم هذا الطفل الذي هو امل العرب والانسانية ! ! ..

الدنيا بأجمعها انتظرت ولادته !

ان في حقيقته لسراً كبيراً ارادته السماء للارض ، انه ليبدو جليلاً مهيباً وهو طفل !

* * *

قدم عبد المطلب طفله الحبيب لبني هاشم بعد ان انتهوا من الوليمة فسألوه : اي اسم تؤثره ان يدعى به ؟

ــ محمد .

ــ محمد؟ يا لله انه اسم عظيم؟ انه اسم جديد لماذا لا تطلق عليه اسماً آخر؟

ــ هو محمد ، تحمده السماء فيكون بها عظيما ، وتحمده الارض فيكون بها عظيما ! ! ...

ــ هو محمد و كفى !

* * *

هذه مكة وقد ذعر اهلها وتفرقوا في رؤوس الجبال وهؤلاء هم الاحباش جاؤا اليها تتقدمهم الفيلة يريدون البيت ولا يريدون سواه ، شادوا كنيسة القليس وآثروها على بيت ابراهيم بل لم يرضوا عن العرب ان يحجوا بيت ابراهيم فعقدوا الخناصر على هدمه وجمعوا الجيوش .

زعموا انهم غضبوا لان واحداً من العرب دنّس ذلك المعبد ، زعموا ذلك ، ولكنهم يريدون البيت لشيء سوى ذلك ، انهم

يريدون هدمه ليكون منفذاً للروم وتسللاً لعقائدهم وجنودهم .

وهكذا خفيت طوية ابرهة على كثير من الناس وسار بجنده الحاشد اللجب معتزاً بفيله الكبير متجهاً من اليمن، صوب الشمال. وما كاد يشرف على مكة حتى غادرهـا اهلهـا . وحين اجتمع الى شيخ قريش وزعيمه عبد المطلب ، واوضح له الغرض الذي من اجله اتى ، طلب اليه ان يرد اليه ابله وقال له : دونك البيت .

ولكنه اردفها بكلمته الخالدة التي ظلت تجلجل في مسمع الاجيال: ان البيت رباً يحميه !

لم يحفل ابرهة بكل ذلك ولم يكترث ، وخال ان عبد المطلب بـه جنة . ان ثروة الحجيج التي كانت رجـاءه اذا تحول الحج الى قليسه ، وسعة النفوذ والسلطان ، قد اسدلت على نفسه غشاوة جعلته لا يصيخ لشيء، جعلته يهجم على بيت ابراهيم، ذي الاقداس الآلهية كما يهجم الى بيت ادنى رجل من العرب انه يصرخ في جنده صرخات شداد : اضربوه ، ادفعوه ، ولكن الفيل لم يعراي اهتمام لصرخاته ولم يبد اي تألم لضربات السياط وطعنات الرماح والسيوف، بل ابى ان يتجه الى البيت ،وكان كلما اداروه الى سواه استخف وسار. ولكن ابرهة ظل عنيداً جباراً ، مصراً على هدم البيت ، يستحث الجنود ويوالي فيهم الصرخات ، ولم يفكر في شيء سوى ذلك ، قد شمخت بنفسه كثرة جنوده ، وتعالت كبرياؤه ، ولم تصده غير امواج من الطير ، تغمر السماء كانها الغمائم السود ، تزحف من كل جانب ، ثم توالي قذائفهـا الجهنمية على رؤوس الجيش ، واذا بابرهة ينظر الى جيشه فاذا هو جثث هامدة بعضها فوق بعض واذا به يذعر ويصعق ....

وفي غضون ذلك، كان المكيون يرقبون جيش ابرهة من الواد

الجبال وشعافها ، اكبروا البيت لانهم رأوه قائماً يناجي الخالق كما تركوه ورأوا في ارباض مكة وافنائها اجساد الجنود بعضها فوق بعض . لا ! لا ! اكبروه وقد ذكروا كلمة قالها عبد المطلب : « ان للبيت رباً يحميه » ! .

اجل ! لقد حمى الله بيته ، فارسل عليهم طيراً ابابيل يحمل كل طائر بين مخلبيه ثلاثة احجار مسطور على كل حجر اسم الرمية من الجند

فرح المكيون بهذا الانتصار الذي احرزوه ، ورفعوا رؤوسهم الى السماء ، واعتبروا انفسهم الابطال الميامين الذين كسبوا الحرب

اجل ! ان جراثيم الجدري فتكت بجيش ابرهة فتكاً ذريعاً ، حتى ابادته بما تجمد في اعقاب الطير من سجيل موبؤ ، جف في جزيرة العرب وتساقط عليه .

* * *

ومهما يكن من امر ، فقد كان حادث الفيل رائعاً جداً وعظيما. ولو لم يكن حادث الفيل رائعاً وعظيما لما جعله العرب تأريخاً واطلقوا على سنته « عام الفيل » ، وظلوا يؤرخون به حتى الهجرة. انه حادث صدق وحق له شواهده من الواقع .

ان فترة عام الفيل كانت زاخرة بالخوارق : فيها يوم ميلاد خاتم الرسل ، يوم غمرت فيه فيوض انوار السماء الارض وبعث الله الملائكة على الشياطين ترميهم برجم من السعير يحيلهم الى رماد ، يوم جفت فيه بحيرة ساوى التي كانت تمخرها اكبر السفن ، وخبت نيران المجوس التي ما انطفأت ابداً وتصدع ايوان كسرى وتساقطت شرفاته وتنبأ الكهان والسحرة بأن اربعة ملوك عظام عادلين سيؤول اليهم حكم العالم بعد كسرى

* * *

هذه لمحة من الخوارق العظيمة التي رافقت ولادة سيد العالم المقبل وسيد الابطال الذي هز الدنيا فسجدت له وخضعت لملكته ....

الفصل الثاني

نشأ محمد فقيراً لايملك كثيراً من متاع الدنيا سوى تركة ضئيلة خلفها له والده : بركة الامة وخمس من الابل ، وهذه سنة الله في رسله . وقد احتضنته امه بضعة أعوام وحين وافتها المنية كفله جده عبد المطلب . ولقد كان عمه حمزة اخا له من الرضاعة .

وكان من شأن قريش ان تعهد باطفالها الى مرضعات من البدو ، وهم يريدون بذلك ان تنشأ اطفالهم على هواء البادية الطلق وسعة الافق ،وتحمل مشاق العيش وقسوة الحياة والفروسية وذلاقة اللسان.

وكانت المراضع تفد الى مكة في كل عام مرتين رغبة في الثراء ، ووسيلة للاكتساب ، وكنّ يرغبن في اطفال الاثرياء ويحببن الرضاعة لهم وينفرن من الفقراء والايتام .

وفي عام ولادة النبي ،جاءت المراضع كعادتهن واخذن يتلقفن اطفال الاثرياء ، وقد حظيت كل مرضعة بما تشتهي الا واحدة وهي حليمة السعدية التي ظلت تنتقل من بيت الى بيت ،ومن اسرة الى اسرة علها تجد طفلاً ثرياً . ولكنها لم تجد الا الطفل اليتيم محمداً ، تركته اولاً لانه يتيم معوز،وفي نفسها مضض،واخيراً،حين لم تجد طفلاً لها ترضعه بل حين نظرت الى محمد اجتذبها سمته الرائع ، وبهجة الحياة الساطعة فيه واضواء السناء التي تغمره ، فحنت اليه واحتملته وفي نفسها الرجاء.

وكانت هذه اول رحلة لمحمد !! ...

مهّد الله لطفولة النبي افصح قبائل العرب وانبهها شأناً واشدها مراساً ولقد تغذت مواهب الطفل وبدت بشائر العبقرية وآيات

النبوة ، منذ اليوم الذي احتضنته حليمة وضمته الى صدرها ، واخذت تنعم نظرها في محياه . فلما رجعت به في الشهور الاولى الى امه ، ضرعت اليها ان تبقيه لديها ، فاجابت آمنة طلبها رغبة في ان ينشأ محمد في نسيم البادية الطلق حتى يستكمل طفولته في ربوعها .

وقد استكمل حولين كاملين رضيعاً ، حتى اشتد ساعداه واشرق بنضارة الطفولة ورونق الحياة .

وما اسرع ما كانت تمر الايام والليالي بهذا الطفل الميمون ، تمر بسرعة البرق ، انه لميمون حقاً . هذا هو البدر يدنوا منه حتى ينير الطريق كلما مشى ، وهذه الطرقات تخضر تحت قدميه وتزدهر ، وهذه المواشي تخفض صوتها لدى سماع صوته ، وتحني رؤوسها .

شاهدت حليمة وقومها كثيراً من امثال هذه الخوارق تحيط بالطفل فكانوا يزدادون تعلقاً به ، والحاحاً في البقاء لديهم ، ولكم توسلت حليمة الى آمنة بعد الفطام ان تبقيه لديها . ولقد سر آمنة ان ترى حليمة تتعلق بوليدها ، هذا التعلق الذي لم يعهد في المراضع من قبل ، سرها ذلك ورضيت ان تبقيه لديها ، فرجعت حليمة بمحمد رجوع القائد المنتصر بانفس التيجان ، واثمن العروش .

يا له من طفل غريب ! تحفل به الآيات والمعجزات ، وتدل على جلال مستقبله في الغد العظيم ...

* * *

ما كانت الاقدار لتدع الطمأنينة بقرب محمد تستقر الى غير نهاية في قلب حليمة ، على شدة الحاحها في بقائه لديها ، ورغبتها في هذا البقاء . وبينما كان ذات يوم في فناء المنازل هو ومسرح ابن حليمة تربه ، واذا بملكين كريمين يلبسان ثوب الانسان ، يدنوان برفق من الطفل الميمون

محمد ، ويتناولانه بكل حنان وبر ، ويشقان صدره الشريف . ويغسلان قلبه في طست من الذهب ، يتفجر ماؤه كأشعة الشمس ومما جعل الطفل مسروحاً يعدو خائفاً مضطربا الى امه حليمة صارخاً اماه ، اماه ، هلمي الى اخي القريشي هلمي . فذعرت امه لمرآه وادركت ان وراءه امراً ، فسارعت حيث الطفل محمد ، فاذا هو واقف ممتقعاً ، فضمته الى صدرها ضماً شديداً لتهدىء روعه وتنطلق به الى خيمتها . وحين حدثها بما جرى ، ملاء نفسها الخوف عليه وخشيت ان يصاب الطفل لديها بمكروه فحملته الى امه وهو لم يتجاوز الرابعة من عمره . وبعد عامين فكرت آمنة ان ترحل بالطفل رحلة ثانية ، زان تزوره اخواله بني النجار . لعلها كانت تريد من زيارة المدينة ان تبعث ذكرياتها مع ذلك الدفين الحبيب عبد الله وان تعرفه بعشيرة له بها اشد اواصر القربى . ولعل الاقدار ايضاً كانت تريد ان تضع في نفس هذا الطفل نواة حب يثرب التي كانت موطن هجرته ومستقر انصاره .

انها يثرب التي يضم ثراها رمس ابيه ، انها البلدة النضرة التي تغشاها النخيل ، وتتفجر في اطرافها العيون ، وينذى من رياحينها النسيم ، انه يتقلب فيها من مرج الى مرج ، ومن حديقة الى اخرى يسير بين حفاوة اخواله ، وحنان امه ، ورعاية خادمته ام ايمن .

ها هي آمنة تترك المدينة وقد ثارت في نفسها الاحزان ، واشعلتها الذكريات ، وهدت من كيانها ما هدت ، حتى انها لم تكد تصل الى الابواء ، حتى كانت على غير حال الاحياء تحتضر ويشتد بها الاحتضار ثم تلفظ انفاسها وهي شاخصة في وجه طفلها الحبيب ، وتنظر من طرف خفي الى ام ايمن كأنها تدعه الى الاقدار وكأن

روحها الطهور ابت ان تنأى بعيداً عن عبد الله . ولعل ما كانت ترى من ارهاصات تصحب طفلها ، وامارات من ارواح السماء تبدو بين يديه وتختفي ، جعلتها تلفظ انفاسها راضية مطمئنة ، راضية بمصيرها ومطمئنة على مستقبل طفلها اليتيم .

تلفظ انفاسها بين مدامع ام ايمن الغامرة ونظرات طفلها الوقور الذي يبدو انه يفهم مصير امه ويدرك عظم المصاب .

ضمته ام ايمن الى صدرها . واخذت تسرى عنه همومه واحزانه وتخفف عنه من وطأة اليتم التي كسرت جناحيه .

حقاً ان المصاب جلل ولكن ، هذا الجد الوقور ، هذا الجد الحنون ، عبد المطلب ، الذي لم يدع لاشباح اليتم السوداء منفذاً الى قلب هذا الطفل ، بل الذي يضمه الى صدره ويصحبه في كل موطن ينتقل اليه ، ويأخذ في التسرية عنه ، يداعبه حيناً ويحادثه أخر ، ويقبل عليه ما بين آونة واخرى بما يشتهي من طيب عيش .

نعم ، نَعِمَ الطفل في ظلال جده ما شاء ان ينعم ، ولم يشعر بفداحة اليتم وقسوة الدهر ، وكأن الله الذي تولى تأديبه ورعايته لم يشأ ان يدعه يقسو عليه الدهر ويشتط في ايلامه ويوغل في التنكر له

لا ! لا ! ان رعاية الله فوق كل رعاية . وان تأديب الله اجلّ من كل تأديب ، ها هو يمهد له في قلب ابي طالب سبيل الحنان والبر ويقيم له في ابعد اعماقه محراب الاكبار والاجلال ، اذ لم تكد تنفض الحياة يديها من عبد المطلب . حتى كان الطفل في غمامة من الرضي ، تغمره بانوارها واقدامها . وحتى كانت راحتا عمه ابي طالب تحيطانه بما يشتهي ، وتهيئآن له كل مسرة وغبطة ، فلم يفتقد الطفل

من شيء بعد ذلك الا وجه جده الشيخ .

* * *

انك ترى هذا العم الحدِب لم يدع فرصة تمر سدى من حياة الطفل، بل كان شديد العناية به وكان اكبر ما يعنى به ، ان يملأ نفسه بالبطولة والشجاعة وان يجعل منه فارساً قادرا على ركوب الخيل .

وكم كان يقص عليه في ليالي الشتاء الطويلة اقاصيص التجار الذين يقطعون الفيافي، ويركبون الأخطار ، ويحملقون في اوجه المنايا تهافتاً على الامجاد وهياماً بالثراء ورفاهة العيش ، يقص عليه احاديث بني مخزوم وغرائب بني امية وعجائب بني اسد مؤكدا له انهم لولا مغامراتهم وجمعهم للثراء الجم لما كانوا زعماء ولا وجهاء .

من اجل ذلك لم يوجهه عمه الى الكتابة بل عاش تاجراً مغامراً وان كان اميالا يحسن القراءة ولا الكتابة .

وكم كان يمر في رحلاته بأقوام كثيرين ، وكم كان يسمع لغات شتى ويشاهد نحلًا متباينة .

وفي الثانية عشر من عمره حين اراد ان يدعه عمه في مكة ويذهب بتجارته الى الشام ، ابى محمد ان يدعه ، ورجاه ان يستصحبه ، وشده اليه ، فحنى عمه عليه وضمه وطمأنه .

هـا هو مرح يستقبل الصحراء بوجه طلق ويستنشق بملء رئتيه نسيمها الفواح ، ويصغي الى حدو الحداة وهو مطلق الروح في عالم الصحراء اللانهائي ، والسماء الفسيحة الاكناف ، المتباعدة الافلاك وآماله الكبار تنطلق هناك وهنالك في تلك الابعاد اللانهائية حيث الاقداس والنور ، حيث العظمة والجلال ، حيث العزة الالهية التي ليس وراءها عزة .

هذا الغمام يظلله ، وهذه افنان الاشجار والدوحات تتهصرعليه حناناً . وهذه النسائم تعبق بين يديه بشتي العبير . وهذا بحيرة الراهب يلفت نظره كل ذلك . ويأتي الى زعماء القافلة دهشاً ، يدعوهم جميعاً الى وليمة . وما كان من عادته ان يدعوهم . ان سرا عظيماً ارقه الليالي الطوال ، واسهده ، وان نبياً كان ينتظره بقلب يذوب حناناً وحباً ، الفاه بين يديه تسوقه اليه الاقدار يذهب رجال القافلة ويدعون محمداً حول متاعهم وهم يجهلون انه المراد من كل هذه الوليمة . وهذا بحيرة يحملق عينيه ويقول :

اين ؟ اين ؟ ذلك الصبي ؟

عجبوا وقالوا : تركناه عند متاعنا .

هلموا هلموا به الي . يقبل محمد ، فلا يعنى باحد سواه ويقتضب كل حديث ان يتسرب اليه من احد . ويصده صداً وهو بهج مسرور مقبل بروحه ونفسه على هذا الطفل . تكاد روحه ان تلتهمه يستوحي فيه نور السماء ، ويستلهم فيه اقداس الحق ، انه رأى بشائر النبوة تطفح في محياه ،وتتلألأ في مقلتيه الواسعتين السوداوين وعلى ثغره تشرق ابتسامة الملاك .

* * *

هذا خطيب مفوه يدوي بيانه وهو على سنام بعيره ، ويشير بمخصرته تجاه الجموع الغفيره ، كأنما يستعين بملامح وجهه ، وحركات يديه ، وتقلب مقلتيه ، ليوضح ما يريد ويركزه ، وذاك شاعر يوقع قصائده ويرتل اناشيده ،وهنا وهناك تجار يقلبون سلعهم ويعرضونها على المتجولين والمبتاعين وبين هؤلاء وهؤلاء اناس يبحثون في نحلهم

المختلفة ، ويفاخرون بآلهتهم ، ومحمد يجول بين هؤلاء ، وينعم نظره في اولئك ، ثم يستأنف نظره الى السماء ، كأنما ينتظر شيئاً .

ذاك هو سوق عكاظ ! ! . .

*　*　*

انك ترى شباب مكة يلوحون بسيوفهم ويضربون بها صدر الفضاء ، ويرفعون بارماحهم الى السماء ، كأنما يعلنون بذلك عن بطولتهم . وهذا محمد وهو اشدهم بطولة واكبرهم شجاعة ، يأبى ان يتظاهر هذا التظاهر ، وكأنما ادرك بفطرته وبكنوز روحه انها حرب بين امة واحدة لا شرف فيها . ولولا خشية العار لما وقف ينبل لعمه ويسلمه ، متثاقلاً ، نبلة بعد نبلة ، في حرب عوان تصرمت اربع سنون ، ولم تنصرم الا بعد الضحايا وتقديم الفداء .

*　*　*

ولم تفت رعي الماشية محمداً وهو في شرخ الشباب لم يتجاوز الثامنة عشر . زاولها كما زاولها الرسل من قبل ، ولكنه لم يجد فيها مايجول بين جانحتيه من مطامح عظام ، من اجل ذلك آثر التجارة عليها حتي عرف بين قومه بالامين .

وانك اذا رميت بطرفك في ذلك الوادي الجديب وهو متطامن بين شموخ الجبال ، ذلك الوادي الذي لم يجد ساكنوه سوى ماء السماء المجموع في صهاريجهم وسوى بئر اسماعيل التي فجرها الله بين قدميه تفجيراً ، انه هو وادي مكة ، البلد الامين . وقد ترامت قصور التجار واكواخ الفقراء على الجبال ، وفي وسط الوادي ، يغمر الجميع بيتُ الله بانواره وهي تلتف به التفاف السوار بالمعصم

من هذا البلد الحرام كانت تنهب الصحراء رحلتا قريش رحلة الشتاء والصيف .

وفيه بيت ابراهيم الحنيف الذي غزته الوثنية بأصنامها واقامتها في صدره تبلغ الثلاثمئة والستين . هذا هبل اكبر آلهتهم ، وتلك مناة ، وهاتيك العزى ، وبينها اللات ، حجارةٌ اقيم بعضها الى جانب بعض يعبدونها من دون الله كما يعبدون الثراء .

* * *

مكة هي البلد التجاري ، واهلها لا يحترفون سوى التجارة . حتى النساء كن يسيرن القوافل ويتخذن الرجال اجراء لتجاراتهن. وهذه خديجة الارملة الثرية ، التي افضت الى العقد الرابع ، كم كانت تطمح ان تجد لقوافلها اعظمَ شبابِ مكةَ قوةً وجلداً ، واكثرهم امانة وحصافة ، وانبلهم غاية وملة واقتداراً .

لم تجد سوى « الامين » ، ومن سواه يستطيع ان يحل عقدة قلبها وان يستهوي نفسها ، وان يمتلك من اعجابها وتقديرها ما يمتلكه ؟

ها هو ينهب الصحراء ، وميسرة غلامها يرقب الغنائم ، وهي تظله من الرمضاء ووهج الشمس المحرق ، وكيف تمر السمائم بالقافلة مراً ، حتى اذا افضت الى محمد انقلبت نشراً خسراً يعبق بالأريج .

انها الصحراء ! مبعث الاحلام ، سماءٌ صافية وسيعة ونجوم زهراء ، تعد الرمال عداً ولا تحصيها ، ورمال فوق رمال ، وكثبان فوق كثبان ، وبين واد وواد جبال تضرب السماء بقممها وآفاق وسهوب ، هنا الشعر ، هنا الاحلام ، ولكن « الامين » لم يكن بالشاعر وما ينبغي له .

ان كنوزاً من الروح تزخر بين جانحتيه ، واسراراً وراء اسرار

تمور في ابعاد نفسه المحجبة بالغيوب ، انها تهاويل الابد الكتوم تغشاه بغموض وابهام هو بعد حين يكون من الاقدار مأتى كل مثل الانسانية وجلالها وغذائها الروحي .

* * *

سهدت خديجة بعد ان ضربت الصحراء قافلتها بأخفافها ، وكم كانت تسهد في لياليها السابقات ، ولكنها في هذه المرة تغمرها احلام واطياف يشرقها طيف هذا الشاب الامين . لم تكن المادة شغلها في هذه المرة ولكن شغلها ما رأت من سمت وخلق ونظر بعيد وعذوبة منطق وكمال خلق و قد اجتمعت كلها في شخص واحد .

ثابت القافلة وكانت الارباح وفيرة ، وقدمت اليها الطرف والهدايا ، واعجبها ولذّ لها حديث ميسرة عن محمد وقد استعادته مراراً واصاخت اليه باذنين واعيتين تحصيه احصاءً .

اعجبها ولذّ لها ، وهنا ابرمت امرها في نفسها ان تتخذ محمداً بعلاً .

— لماذا لا تتخذ زوجاً يا محمد ؟

— القلة ! القلة !

— ارأيت ان اتاك المال والحسب والجمال ؟ !

— من ؟

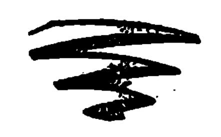
— خديجة ! خديجة ! هلم فاخطبها ! !

— اهي ترضى ؟

— اجل ! اجل ! هلم سارع .

ونجم من ذلك الحديث الذي دار بين محمد وتلك الوسيلة ، اجتماع كبير بين رجال مكة في دار خويلد تم فيه عقد قران محمد على خديجة وخطب الجمع ابو طالب فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا من ولد ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وبلداً حراماً وجعلنا الحكام على الناس . ثم ان محمداً بن عبد الله ابن اخي ، من لا يوازن فيه فتى من قريش الا رجح عليه براً وفضلا وكرماً وعقلا ومجداً ونبلاً وان كان في المال قلّ فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما احببتم من الصداق فعلي » .



الفصل الثالث

لقد كانت مزاولة التجارة من اسباب الثراء في مكة ، ولقد اصبح محمد رب اسرة كبيرة وله من الذرية : زينب ورقية وفاطمة وام كلثوم ، وكان يزاول التجارة !

وقد كان ابيض الوجه مشرباً بحمرة ، عريض المنكبين واسع العينين، اذا مشي فكأنما يتحدر من صبب، ازج الحاجبين،اسود الشعر ولم يكن في كسوته مسرفاً بل كان يلبس من الثياب اخشنها يلبس ثوباً من الصوف ، وينتعل حذاء من الجلد ، وله عمامة بيضاء وكان يلبس ما يُهدى اليه الا ان يكون ناعماً فيهديه .

وكانت اخلاقه فريدة من نوعها ، يحدب على الفقراء والاطفال ويؤنسهم جهده ويوفر لهم اسباب السعادة . وكان قريباً من كل قلب ، تراه ابداً باسماً ، حلو الحديث ، منفقاً لكل مال يصل الى يديه ،لا يدخر شيئاً ، كثير الصمت ، وفياً ،وقلمايستطيع ان يجاريه انسان في وفائه . تلك خديجة مضت ،وتقلب النبي في تنظيم الدولة وتنظيم الامة، واتخذغيرواحدة حليلةلاغراضه الكبيرة السامية،ولكنه لم ينس خديجة قط ، خديجة الكهلة التي كان يؤثرها على كل نسائه .

ولا ريب ان عناية الاقدار ابداً تبدو لك جليةً حين تلقي ادنى نظرة في تاريخ محمد ، هذا بيت ابراهيم يتداعى ،وهذه قريش تجمع المال الحلال لاشادته من جديد ، وهؤلاء هم اشرافها وذوو المكانة فيها يكادون يمتشقون السيوف ويحيلون ساحة المسجد بركة من الدم لان كل زعيم يؤثر ان يضع حجر ابراهيم الاسود بيده .

ولولا ان ذوي الرأي فرضوا ان يحكّموا اول داخل ، لما كان سلام بين اولئك القوم .

وكانت الاقدار الآلهية تحيط محمداً وتسوقه الى موطن الخلاف، لانها آثرت ان لا يضع هذا الحجر بعد ابراهيم الا محمد بن عبد الله !

وما كاد يطل على القوم من باب المسجد حتى تنادوا : هذا الامين وكلنا نرضاه !!....

بسط محمد الرداء وامسكه كل الزعماء ورفعوه الى موطنه من الركن : وهنا مد يده ووضعه في مكانه فاصبح مقدساً لان نبيين كريمين وضعاه في هذا الموضع من الكعبة .

وهكذا بدت حكمة النبوة ودلائل الحق تتضح في سيرته ،فقد استطاع في هذا الموقف ان يرضي الجميع وان ينيل كل واحد من الزعماء ما يشتهي من الشرف والسؤدد واليمن .

وكانت العزلة احب شيء اليه ، يؤثرها حتى على الاجتماع باهله وبنيه ، ولعل خديجة كانت تتساءل في نفسها لماذا يقضي محمد الليالي الطوال ذوات العدد ، وهو في كهف حراء وحيداً ليس له من مؤنس او صاحب !

لا ! لا ! لم يكن وحيداً يا خديجة ، السماء تناجيه ، والملائكة تحييه ، والاشجار والاحجار تسلم عليه . لم يكن كاهناً حتى ترتاد ساحته الجنة ، ولم يكن شاعراً او ساحراً حتى تطغي عليه الخيالات والاوهام وتحف به الابالسة .

وقد اضنته العزلات واضواه السهد والأرق والخواطر التي كانت تتراوح في نفسه وترتاد اعماق ضميره ، ها هي قريش كلما رأته عجبت لحاله ، لماذا هذا التجافي عن الناس ؟ اين اشراق وجهه

اين أنسه وبهجته ، اين نضارته واجتماعه ؟!...

لماذا تجوط بـه هذه الافـكار والبلابل وعلام تـدور في نفسه الهواجس ؟ ! ايدور في خلدهم ان محمداً الضاوي الهزيل متصبح بين يديه كنوز بلاد العرب وممالكهم بل كنوز العالم وممالكه .

ان ذلك ! ان ذلك سيكون !

* * *

كانت السماء صافية والنجوم تتقـد على اطراف الافق والقمر يغمر الغـار باشعته الوهـاجة والنبي ينظر الى الصحراء وتجـاويف الاودية من بعيد ، وتارة ينعم نظره في السماء . ولعله كان يطول به المقام في الغار فيشرف على واد او يتسلق قمة او ينحدر ، واذا مل ذلك كلـه يعود الى غاره ، ويأخذ في عبادة الفكر وطول النظر ، والتفكر في خلق هذا العالم ، وعظمة خالقه وجلال قدرته .

ها هو ذا يتقد الغار كأنه شعلة من النور ، او كـأنما طلعت الشمس من اعماقه ، وها هي اجنحة الملاك جبريل تملأ الغار بيواقيتها ولآلئها واضوائها وظلالها الذهبية .

صوت رهيب ينبعث من فم الملاك ، بعد ان يضم محمداً الى صدره ويضغط عليه : اقرأ . . . اقرأ . . .

ـ ما انا بقارىء . . . . . . صوت ينبعث من اعمـاق قلب محمد ورجفة خفيفة مطمئنة تمر على قلبه .

ـ اقرأ ! اقرأ . . .

ـ ما انا بقارىء ... وهكذا يعيدها مرةً ثانيةً والملاك يجذبه اليه ويطلقه وهو يقول للمرة الثالثة :

- « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ،
يختفي الملاك من الغار ويبدو على اطراف السحب ، تتقد باجنحته وتضيء السماء ، ويسمعه محمد يقول له وهو صاعد :
انت رسول الله ! انت رسول الله !

ولم يكد جبريل تخفيه ابعاد الكون ويغيب في متنائي الآفاق، حتى يتحامل محمد على نفسه ، وقد طغت عليه الافكار ، وناء تحت اوقارها فلا يكاد يصل الى زوجه الحبيبة حتى ينادي : زملوني ! زملوني ! ولم تكد تزمله زوجه وتحنو عليه ، حتى يخترق اذنيه صوت الملاك يناديه بقول الله : يا ايها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ...

استبشرت خديجة واحست ربما يخالط ظمأ المعرفة الذي كان يحز من نفسها كلما شاهدت الاسرار تحيط بزوجها ، ربما غمرها ، هذا هو الملاك وهذه بشائر النبوة فهي لم تخش عليه الجنة ولم تخف عليه ثرثرة الكهان بل تقول له حين خال ذلك الذي الم به ان يكون من الجن : « والذي نفسي بيده لتصبحن رسول امتك ورسول العالم !

وذهبت به الى ابن عمها ورقة بن نوفل وقصت عليه حديثه فطمأنه ورقة وقال له : هذا هو الناموس الاعظم الذي نزل على موسى : ياليتني اكون حياً حين يخرجك قومك .

فقال له محمد : او مخرجيّ هم ؟

فاجابه ورقة : نعم ، انه لم يجيء رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي ، ولئن يدركني يومك لانصرنك نصراً موزراً .

وورقة هذا هو الذي تنصر في الجاهلية وكان يكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء ان يكتب ، وكان اذ ذاك شيخاً كبيراً قد عمي .

مرت بعد ذلك ايام واشهر بل مرت اعوام ثلاث ولم يجتمع ملاك الوحي الى محمد ، وظل محمد جد مشتاق الى سماع ذلك الصوت الالهي وجد تواق الى غار حراء يرتاده ويمعن في ارتياده ، ويتأمل في السماء وينعم نظره فيها ، ويطيل التفكير ، حتى ظن انه قلاه ربه ، ولكن الله لم يقله وهذه آياته تعلن ذلك :

« والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، الم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فاغنى »

ونزل بعد ذلك الأمر باعلان الدعوة والجهر بها وانذار قومه « وانذر عشيرتك الاقربين » .

هذه صخرة الصفا ، يصعد اليها ، ينادي قومه معلناً لهم رسالة ربه وهو على اتم ما يكون الاستعداد لنضال الوثنية ، لنضال التقاليد ولنضال النحل البالية ، على اتم ما يكون استعداداً وثقة بالنصر من الله وايماناً بذيوع الدعوة بين الامم .

* * *

وكان اول المسلمين من النساء زوجه خديجة ومن الولدان علي بن ابي طالب ، ومن الموالي زيد بن حارثة متبناه ومن الرجال ابوبكر

ولم يكن ابو بكر في الجاهلية بالمغمور او المجهول بل كان نابه الذكر جم الاحترام والتقدير ، معروفاً في القبائل بحسن اخلاقه وسمو منزلته ، فلم يكد يؤمن بما جاء به صديقه الامين محمد حتى شرع يؤدي واجب الرسالة ويدعو الناس الى الاسلام وعلى يديه اسلم ملاء من قريش : اسلم عثمان الذي اصبح زوجاً لرقية ابنة النبي ، وعبد

الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص والزبير بن العوام وطلحة وتبع هؤلاء ابو عبيدة وسعيد وعبد الله وابن مسعود .

والرسالة الآلهية ليس في مقدور البشر صدها او القضاء عليها فها انت ترى ان ذوي قربى محمد كانوا من الد اعدائه واشدهم محاربة للدعوة وصداً لها ، مما جعله يذكر تلك الكلمات التي قصها عليه ورقة حين اعلنه بهذا المصير ، ومع ذلك لم يستطيعوا القضاء على الدعوة وتعطيل الرسالة .

* * *

واذا كانت قريش الجمة البطون الكثيرة الزعماء والرؤساء تجد نفسها حيال عقائدها واوثانها وتقاليدها مندفعة الى نصرتها ، والذود عنها ، والموت في سبيلها ، فهل تكون اذل من بني هاشم اقرباء محمد استنكارا لما جاء به ودفعاً لدعوته وعنادا عليها وتشهيرا بها ؟ او دونهم مؤامرة وكيدا ؟

والرسالة ابدا نضال وحرب ، وأخذ ورد ، وأوار يشتعل من دونه اوار ، ولظى من الاحقاد يلتهب في الصدور ويوغر في النفوس ، انهم يشهرون به في كل ناد ، وينسبونه مرة الى الشعر ، وطورا الى الجنون وحيناً الى الكهانة ، ولم يكفكفوا من بذاءتهم ولم يتورعوا ان يصموه في كل مكان ، وان يلحقوا به الاذى يترصدونه في الطرقات .

واشد ما كان يدهشهم ويأخذ بمجامع قلوبهم انه على كثرة اذاهم ونقمتهم يرونه ماضياً في دعوته مثابراً عليها ثابتاً ثبوت الجبال ، ناعماً بالاذى ، مستريحاً الى المجاعة والكيد ضاحكا لكل ما يلقونه به ، وكم كانت الدهشة كبيرة ، والعجب اكبر ، حين عرضوا عليه الملك ، حين عرضوا عليه الزعامة عليهم ، حين عرضوا عليه جل

اموالهم ، حين عرضوا عليه كل ما يشتهي في سبيل ان يترك دعوته ويدع رسالته ، ويرضى بما هم عليه من عبادة اوثان وتقاليد . . .

وكم كانت الدهشة كبيرة والعجب اكبر حين قال لهم «والله لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله او اهلك دونه ! »!..

هكذا يخاطب عمه وهكذا يخاطب قومه . انها الرسالة الآلهية ، انه الحق، انه الثبات من الله، انه قول الله ، ومن اصدق من الله قيلا ؟!.

ولشد ما كانت تؤلم قريش وتقض مضجعهم وقفات محمد الجبارة لدى ارهاقهم وبطشهم ، لشد ما كانت تثير في نفوسهم الوان الهواجس والافكار ، فيلجأون الى طلب الخوارق والمعجزات ، يريدون سلماً ينتصب من السماء الى الارض ليجتمعوا الى الله ويسألونه اذا كان محمد رسولاً نبياً ، او ينزل الله الملائكة اليهم ارسالاً تقسم لهم من الايمان احرجها حتى يصدقوا انه رسول ، ولماذا لا يفجر الانهار ويخرج من الصحراء الحدائق والغابات لماذا ؟ ... لماذا ؟ ...

يا ويحهم ، نسوا ان الخوارق ان شاهدها قوم جحدها آخرون لم يشاهدوها ، يا ويحهم ذهلوا ان هذه الخوارق هي بطفولة الانسانية اخلق ، وبلوثة الاجيال المأفونة اجدر ، انه كتاب من السماء فيه معجزة العلم ومعجزة العقل : آيات بينات طافحة بالمعجزات، زاخرة بالخوارق ، في كل آية حكمة ، وفي كل كلمة بيان ، اوليس في امكانهم وهم اهل اللسن والفصاحة وارباب البلاغة، فيهم فحول الشعراء ومصاقع الخطباء، وفيهم الزعماء، ان يأتوا بمثله؟!. هاهو ذا يطلب اليهم جميعاً ان لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولم يصدقوا انه من الله الخلاّق ان يأتوا بمثله

او بسورة او ببضع آيات ، اجل عجزوا عن ذلك ولكن عجزهم لم يزدهم الا عناداً واستكباراً وطغيانا وتمرداً .

وكم حاولت قريش وانصار قريش ان تقضي على دعوة محمد بالقضاء عليه ، ولكن هناك ابو طالب وحمزه ، هنالك فريق من بني هاشم ، من قوم النبي يأبون ان يُنال بأذى وهم احياء وان كانوا على غير دينه لأن للدم حقاً وللقرابة سلطانا .

هذا ابو جهل انفرد بالنبي مرة فهاجمه بكل محرجة من القول ، وغادره وهو على اشد ما يكون الانكسار . ولكن لم يلبث غير قليل حتى تسامع عمه حمزه واخوه من الرضاع ما فعل ابو جهل ، فتركه بين قومه ، مستكبراً مستعلياً ، فاذا هو يهجم عليه ويشج رأسه بقوسه قائلاً : « اتشتم محمداً وانا على دينه ؟ وحاول رجال من بني مخزوم ان ينتصروا لابي جهل ولكنه ادرك مغبة الامر فأقعدهم قائلاً : « اني شتمت ابن اخي ونلت منه » .

ومهما يكن من امر فان بني هاشم وجلهم غير مسلمين قلما كانوا يستطيعون ان يمنعوا عنه كل الوان الاذى وبالاحرى الاذى الذي كان يصل الى المسلمين الذين لم تكن لهم عشائر تذود عنهم وتحميهم كالمستضعفين والموالي . فهذه سمية يطعنها ابو لهب طعنة نجلاء ويبقر بطنها ويرديها قتيلاً لا لشيء سوى انها آمنت ، وهذا بلال يطرح ارضاً على الرمضاء المحرقة وتوضع على صدره الصخور وهو ينادي : أحد ! أحد !

وهكذا تفاقم البلاء وعظم الداء مما جعلهم يستأذنون رسول الله في الهجرة الى الحبشة فان بها ملكاً رحيماً حفياً بالضعيف كريماً بله كراهية النجاشي لقريش الوثنية منذ احداث الفيل .

وقد ثارت ثائرة قريش واغمتهم حين رأوا الكرامة تحيط بالمهاجرين المسلمين في دار هجرتهم من النجاشي ، مما شد في عضدهم وجعلهم يستأنفون الهجرة مرة ثانية بعدد كبير يبلغ الثلاثة والثمانين رجلا وثلاثة عشر امرأة بعد ان كانت الهجرة الاولى لا تتجاوز عدد نساء الثانية الا قليلاً .

اجل ! ثارت ثائرة قريش ولم تنم عن عقد المؤامرات ، فها هي تجمع التحف والطرف وتبعثها الى نجاشي الحبشة في صحبة رجال من ذوي الدهاء والكيد ليفتنوه ويسلطوه على اصحاب محمد ، ولكنهم ثابوا بالخذلان يأكلون الرغام ويتجرعون الماء الاجاج ، فان صاحب الحبشة اغلظ لهم في الرد ، حين ادرك غرضهم السيء .

وقد اهم قريش هذا الامر واعجلهم على الانتقام والمخاطرة بالقضاء على محمد مهما يكن الحال . خافوا اشد الخوف ان تفلت الفرصة من ايديهم وان يستقوي محمد بمن يسلم ويشتد ، فعقدوا اجتماعاً فيما بينهم لاغتياله وانتدبوا اخشنهم نفساً ، واقساهم قلباً واشدهم شراسة ، واقواهم ساعداً واعنفهم خصومة ، انتدبوا عمر لاغتيال محمد والقضاء عليه ، فلبى الدعوة وامتشق حسامه وابى الا ان يصرعه امام الجماهير لان عمر ما أعتاد الخوف ولا الاستخفاء !

ذهب مسرعاً مستعجلاً يبلع الارض بقدميه ويطويها طياً شاهراً حسامه غير معتقد بقوة في الارض تحول بينه وبين محمد .

ـ اليك اليك يا ابن الخطاب ، الله اكبر ! الله اكبر ! ...

* * *

كان نعيم يتردد حيال دار الارقم ابن ابي الارقم في الصفا حيث المسلمون يجتمعون بالنبي ويتلقون عنه مثل الاسلام وتعاليمه واذا

بعمر وهو عجل في خطوه يعثر بنعيم .

يرى نعيم الشرر يتقد في عينيه ودم الغضب يكاد يطفر من وجهه فيفهم ما يريد . —

— مهلاً ! مهلاً ! الى اين يا عمر ؟

— الى حيث محمد لاقتله !

— دع عنك محمد واصلح بيتك .

— ويحك ! ويحك ! ما تقول ؟ ! . . .

— ان اختك قد صبأت !

— احقاً ما تقول ؟

— اذهب تجد صدق ما اقول !

* * *

تدور الارض والفضاء بعمر وتسود الدنيا في وجهه ، وتضيق به فما تسع خطوه فيكر الى بيت اخته غضوباً ساخطاً يريد البطش والفتك ويطرق الباب حتى يكاد ان يحطمه ، فلا يجد اسراعاً وكأنما يسمع همس التلاوة يلج الى اذنيه فيزيده غضباً على غضب ، ويجعل يضرب الباب بقدميه حتى ليكاد ان يزلزله زلزالاً .

وما كاد يرى زوج اخته حتى ينقض عليه انقضاض الصاعقة ويشده من تلابيبه شداً عنيفاً :

— ما هذه الكلمات التي كنت اسمعها وما هذه الهينمة ؟

— لا شيء يا عمر !

— لا شيء ؟ ! ويطرحه على الارض وينهال عليه لكماً .

فتنهض فاطمة ابنة الخطاب لترده عنه فيلقي عليها الشر واللهب ويضربها على وجهها ضربة تشجها شجاً عنيفاً ويصرخ في وجهها قائلاً :

ـ وانتِ ايضاً صبأتِ ؟

إن عمر على شدة بطشه وهوله وقوته وجبروته ليبدو ضئيلاً جداً امام قوة الايمان ، الايمان الذي دفع هذين الضعيفين الى الثبات وجعلهما يصرخان في وجهه ويقولان : اجل ! اسلمنا والحمد لله .

هذا الايمان الذي جعل عمر القوي الشديد يتخاذل مستضعفاً ويسكن سكون البركان بعد ثورته والاعصار بعد شدته ، يسكن قائلاً

ـ اين هذه الصحيفة التي كنتم تقرأون ؟

والتفت فوجدها على الارض فانحنى وما كاد يمسكها حتى صرخت اخته دعها . دعها . انه كلام الله لا يمسه الا المطهرون .

وهنا يتوضأ عمر ويتلو الآيات :

« طه ! ما انزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلاً ممن خلق الارض والسماوات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما في السماوات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى ، وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى ، الله لا آله الا هو ، له الاسماء الحسنى ، وهل اتاك حديث موسى ، اذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى . فلما اتاها نودي يا موسى ، اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى ، وانا اخترتك فاستمع لما يوحى ، اني انا الله ، لا آله الا انا فاعبدني ، واقم الصلاة لذكري ، ان الساعة آتية اكاد اخفيها ، لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها

واتبع هواه فتردى » .

وما كاد ينتهي حتي بدت بشائر الايمان تلوح على وجهه والتفت اليهم قائلاً : اين محمد ؟ ! اريد ان اسلم .

ثم رجع ادراجه وذهب الى دار الارقم وطرقه منادياً .ــ تخوف المسلمون من صوت عمر وأبوا ان يفتحوا له الباب وقد شاهدوا بيده السيف من خصاصه ، ولكن البطل الهاشمي حمزة بن عبد المطلب يقول: دعوه يدخل : ان اراد خيراً قبلناه وان اراد شراً قتلناه بسيفه .

* * *

يدخل عمر والخوف يملأ قلوب المسلمين حذراً على رسول الله وخشية اغتياله . ولكن النبي ، وهو البطل الشجاع الصنديد ، ينهض في وجهه مستقبلاً ويشده اليه قائلاً : اين انت يا عمر ؟!.

قال اتيت يا رسول الله مسلماً: لا اله الا الله ، محمد رسول الله.
فترتفع اصوات المسلمين من دار الارقم بالتكبير : الله اكبر ، الله اكبر ، فتردد صداها بطاح مكة وارجاؤها فتسقط في آذان قريش وهي في دار ندوتها !

ويخرج المسلمون ، وعمر شاهر سيفه، الى المسجد، يعلنون صلاتهم بجانب حمزة لأول مرة . ــ

الله اكبر !

ما اشبهك يا عمر بالقديس بولس !...



الفصل الرابع

لم تجد قريش بعد اسلام حمزة ما اقض مضجعها واسهر ليلها وافجعها في احلامها الا اسلام عمر ، فقد كان معروفاً بينهم بقوة الاسر وشدة الجانب والبطولة والجهر الصارح بما يدين به غير خائف ولا وجل .

والنبي لم يدع لقريش من تقاليد الا هدمها ولا من آلهة الا نال منها كل النيل وهزيء بها وبعابديها .

وكم كانت تؤلمها تلك الآيات التي تقرع الآلهة وتنذرها وعابديها في سواء الجحيم ، كم كان تؤلمها !

وانك لتجد العجب حين تتغافل قريش وتود ان تجد شيئاً من ثناء يتناول كبريات آلهتها حين تقول لمحمد : هذه اللات والعزى وهذه مناة اكبر آلهتنا ، فما رأيك فيها ، تحاول استدراجه الى امتداحها والابقاء عليها فيتركهم ولا يرد عليهم ثم يأتي في اليوم الثاني واذا هو يفجعهم فيها فيقول : « ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان » .

واحست قريش بالاخفاق يتمشى في صدرها ونفضت يديها من كل امل يرجى في يوم ان تنال آلهتها من التقدير والحرمة في نظر محمد ، ما هو كائن لها في نظرها . فلم تجد بداً والأمر كله جد من ان تقضي عليه مهما كلفها الامر .

ها هي ذا تجتمع الى زعيمها ابي سفيان وتقرر الفتك به وابو سفيان يستمع اليها ، واخيراً ينقض ما ابرمت لانه كان ابعد رأياً واصدق فراسة اذ قال لها : وما نصنع ببني هاشم وهم ليسوا من الهوان حيث

تظنون ، وما أخالهم يدعون رجلاً منهم تناله السيوف ثم يتركون سيوفهم تنام في اغمادها .

بيد انه يعطي فكرة اقرب الى التنفيذ والامكان وليس فيها من خطر على قريش ولا اراقة للدماء ، هي مقاطعة بني هاشم مقاطعة كلية ، حتى يسلموا محمداً .

ومن اجل ذلك تعاقدوا على صحيفة ، وتمكيناً لاصرارهم وثباتهم علقوها في جوف الكعبة .

وهكذا تم الحصار واستمرت المقاطعة مدة ثلاثة اعوام حتى ضاق ببني هاشم الامر واصيبوا بالجهد والسغب ولم ينفرج الامر الا حين اخبر النبي عمه ابا طالب بان الارضة اتت على الصفحة الآثمة ولم تترك سوى اسم الله .

وما كاد يخبر ابو طالب قريش بما كان من امر الصحيفة الظالمة ، وكيف اتت عليها الارضة ، حتى ذهبوا الى جوف الكعبة وتيقنوا انهم ظلموا بني هاشم وظلموا محمداً بما ضربوا حولهم من حصار ، وهكذا رفع الحصار .

* * *

كانت الاقدار ترعى النبي وتحيطه ببسالة عمه وحنان خديجة . ولعل الله اراد ان يثبت للملأ ان الرعاية انما هي رعايته ، وان الحفظ انما هو حفظه ، وما ابو طالب وما خديجة الا من الاسباب الآلهية التي جعلها الله وقاية لنبيه .

ها هو ابو طالب يقضي نحبه ، وها هي خديجة بعد اشهر تقفو اثره وها هو النبي تشتد به الاحزان .

وها هم المسلمون يطلقون على هذا العام : « عام الحزن » .

* * *

اعتقدت قريش بعد موت ابي طالب وخديجة ان في مقدورها ان تنال مأربها من النبي وان تقضي عليه وعلى دعوته وان تبدد انصاره ورجاله ، واعتقدت ان محمداً بعد نكبته بموت ابي طالب وخديجة يخلد الى السكينة ولا يأتي بحركة ضدهم .

خاب ظنهم ، هـا هو يواصل جهاده ونضاله ، وهـا هو يغـادر مكة الى الطائف .

الطائف ! ذلك البلد الخصيب ، البلد الذي اقتطعه الملاك جبريل من الفيحاء باثماره ومائه الغزير ، وحدائقه الفينانة ، ونسائمه العذبة ونشره الفواح ، وروابيه النضرة ، اقتطعه ليكون استجابة لدعوة ابراهيم حين طلب الى ربه ان يرزق من كل الثمرات اهل هذا الوادي الجديب

ولم يجد النبي في الطائف اقبالا على دعوته ولا تلبية لندائه فقفل راجعاً هو ومولاه زيد الى مكة ولكنه حين مر بنخلة في جوف الليل وقف يصلي ويناجي الله ويضرع اليه ويتلو كتابه بصوت شجي مؤثر ، وبينما كان كذلك مر به نفر من الجن فسمعوا كلام الله يتلوه نبيه فذهبوا الى اقوامهم قائلين : «يا قومنا انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ، يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لـكم ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم » .

وقد دخل النبي مكة بعد ذلك واعلن الذود عنه واجاره مطعم بن عدي

* * *

وكان النبي في هذه الفترة على اشد ما يكون ضيقاً ونصباً فانه

كان يجد أشد الصعوبات في ابلاغ رسالة ربه وافدح الآلام والاوجاع ولكنه لم يحفل بكل ذلك ولم يخش بطش قريش ولا تصميمها على الفتك به ، بـل ظل يحتمل مـا يحتمل بقلب مطمئن ونفس راضية ويقين ثابت بالنجاح في نهاية الامر .

وفي ذات ليلة وهو مضطجع حيال الكعبة ، وقد طـافت بـه الاحلام كل مطاف ، وفكر في اعمال قريش وفي جهلها وعصبيتهـا لوثنيتها ، وفي حالة الانسانية وانصرافها عن عبادة الله، فكر في كل ذلك ، وادرك ان الله العظيم الذي اوكل اليه اداء الرسالة ، هو القادر وحده ان يهيء له السبل التي تجعله يؤديها خير اداء بفوز ونجاح .

اصبح النبي على اتم مـا يكون الاشراق والبهجة فواحاً نضراً يملأ ثغره الابتسام الوضاء ، والامل الناجح يحفل بين جانحتيه ويفعم صدره ، وها هو ذا يتحدث الى عمته العجوز ويستفيض في الحديث يتحدث عن رحلته السماوية التي شاهد فيها من عجائب الاقدار وغرائب الكائنات ، وما ابدع الخلاق في سماواته ، وما اوجد في عوالمه ، يتحدث اليها عن هذه الرحلة وقد اعتقد ان خالق كل هذه الكائنات ومبدع كل هذه العوالم ،هو حقاً قادر على ان ينصر عبده محمداً على الانسانية جمعاء ،وان يظهر دينه الذي ارتضاه ولو كره المشركون.

واقترب الملكان يقودان البراق وهو اسرع من البرق ، رابة مخلوقة من قوى الكون ، تسبق الضوء في سرعته ...

اتينا يثرب ، وصليت بها ، وآذنني جبريل انها موطن هجرتي وهكذا ضربنا الارض الفضاء وانتهينا على بلدة عجيبة ،فنزلت وصليت تحت شجرة فينانه اظلتني وقال لي جبريل انها مدينة مدين وهذه شجرة موسى !

وقد اعترضني جبل شامخ تتلألأ قممه كأنها اجنحة الملائكة ، وهناك صليت فاذا جبريل يقول : هذا طور سيناء حيث كلم الله موسى

وهوينا الى الكهف الميمون المبارك المظلل بغمائم النور ، حيث ولد السيد المسيح في بيت لحم ، وصليت ، وافضيت الى هيكل سليمان ، الى المسجد الاقصى المبارك ، واذا الرسل محتشدة على قدم وساق والملائكة تغمره من السماء الى الارض واذا الاضواء تنبعث من الافاق ، صليت بهم وما كدت ان انتهي من الصلاة والسلام حتى انتصب معراج النور معراج الاقداس من السماء الى الارض ، وفي اسرع من لمحة الطرف كنت اجوب في السماء الدنيا ، وهي عجب ، الفيت بها آدم ، وقطعنا بعد ذلك ما بين السماء الدنيا التي جعل الله عوالم النجوم زينة لها ، الى عوالم اكبر واشد دهشة ، حتى دخلنا في السماء الثانية ، فسلمت فيها على يحيى وعيسى ، وما كدت الج في الثالثة وقد امتلأت نفسي من عجائب عوالمها ، حتى رأيت يوسف آية الجمال ، فسلمت عليه . ثم الفيت في السماء الرابعة النبي ادريس ، اقدم الانبياء من بعد نوح ، وفي الخامسة الفيت هارون وفي السادسة موسى وفي السابعة ابراهيم . عوالم كبرى قطعتها ، فيها كل التهاويل التي لا يستطيع ان يدرك كنهها عقل الانسان ، ولا يحيط علمه باسرارها وعجائبها .

وما اشرفت على سدرة المنتهى ، زينة عوالم الغيب ، وفتنة وجود ما وراء الطبيعة ، انهار الجنة تتفجر من اعقابها ، واضواء الاملاك تشرق في اصولها ، غشيتني موجات من النور حيال السدرة ، وينابيع من الاشراق ، لا يدرك نهايتها الخاطر ، ولا يحيط بمداها العقل .

وقد ارتفعت بي هاتيك الامواج الى ابعاد وراء ابعاد حتى سمعت صرير اقلام الاقدار ودوي تصاريف المقادير ، وتجلت لي من آيات الله ما تجلت فخررت ساجداً لربي ، فاوحى الي ما اوحي .

* * *

لذّ الحديث لعمته العجوز واخذتها صور السماء وعوالمها الغريبة وشاهدت من معالم الوجود ما كانت تجهل . وما كاد ينتهي ابن اخيها من حديثه حتى استيقظت من غمرة النور وبهجة الحديث وهي تقول

— والان ما انت فاعل ؟

يا ليت شعري ، اي سؤال هذا ، ما هو فاعل ؟ وهل على رسول من امر سوى التبليغ ؟ وهل على رسول من امر سوى متابعة الجهاد وهل على رسول من امر سوى اداء الرسالة ؟

* * *

قريش العتاة الظلمة ، قساة القلوب ، المقرنون في اصفاد الواقع الضيق ، والذين قضوا اعمارهم الطويلة ولا يعرفون سوى ما تشحه عليهم الصحراء المجدبة من وشل المياه الآسنة وجدب الرزق والذين لا يعرفون في اسرع ما يذهبون سوى بطء الرواحل ، قريش التي لاتدرك من قوى الالهة ، ولا من عجائب اقدارها ، ولا من امكانيات اعمالها سوى ما تأتيهم به تلك الاحجار المنصوبة في الكعبة ، ينسبون اليها بعض اعمالهم وامكانياتهم وتصرفاتهم ، ويخالونها انها كل ما تستطيعه الالهة من اعمال ، ان قريش ليس في امكان عقليتها الواقعية المتحجرة الضيقة ، ان تفهم سبح الارواح في عوالم الغيوب ولا مناجاة الانبياء لخلاّق السماوات ، ولا تداني الابعاد الشاسعة في

إمكانيات الامـلاك ، فـكان لابد ان تنكر على النبي عروجه الى السماء ايما انكار ، وتعتقد ان الذين آمنوا سوف يتحللون من ايمانهم وما كسبه محمد في مدى اعوامه الطويلة من رجـال آمنوا ، ذوي عقول ، سوف يخسرهم صفقة واحدة .

فرحوا وسروا لحديث المعراج ورقصوا لا لأنهم آمنوا به ولكن لأنهم خالوه ثغرة ينحدرون بها الى موطن الشك والريبة في قلوب المؤمنين فيصرفونهم عن محمد .

لجأوا الى اكبر المؤمنين ، ابي بكر ، وقالوا له :

ــ ما رأيك فيمن يقول انه صعد الى السماء وطاف العوالم وقطع نهاية ابعادها ثم ثاب ، وفراش مرقده لم يبرد من حرارة جسده ؟

ــ انه مجنون ! ماذا اقول : مجنون !!

ــ محمد ، محمد ، هو الذي يقول ذلك ؟

فيرفع حينئذ صدره وتستيقظ حيوية الايمان في نفسه وتتجلى له قدرة الله المهيمنة على الـكائنات قائلًا : بصوت عريض خـارج من اعماق قلبه :

ــ ان قال محمد ذلك ، فهو حق !!

وهكذا يقف الصديق مرة ثانية يؤدي للاسلام الايمان كما ادى له صدق الدعاية حينما آمن لاول مرة !

* * *

وقد يعجب القاريء اليوم حين يعلم ان بعد حادثة المعراج وما قصه النبي على قومه من الاحداث والتهـاويـل التي جرت ، ازداد اذاهم عليه وتنكرهم له واشتدت وطأتهم عليه . والنبي كعـادته لم

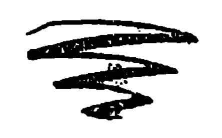
يكترث لكل تهجماتهم ولم يبال بكل مفترياتهم وتضليلهم بل كان اذا الفى قوماً من الغرباء اتوا الى مواسم الحج ، الم بهم وابلغهم رسالة ربه وتلى عليهم ما انزل الله .

* * *

وفي يوم الفى ستة نفر يصطلون حول نار لهم وهم قوم من يثرب فدلف اليهم وشرع يقص عليهم امر الرسالة ويبلغهم اياها ، فلم يتنكروا له بل اصغوا الى حديثه واطالوا الاصغاء ، ولذ لهم الحديث ووجد الى قلوبهم منفذاً ، فنفذ واستقر ، ذلك لأن هؤلاء النفر قوم لهم سابقة بمعرفة الدين ، جاوروا يهود يثرب وسمعوا منهم شيئاً من كتاب موسى وعلموا ان وراء هذه الحياة حياة اخرى .

هؤلاء النفر الست كانوا الغرسة الاولى للاسلام في يثرب ، آمنوا وبايعوا على ايمانهم ورجعوا مبشرين قومهم .

وهذه في الحسبان صدفة موفقة ولكنها في مشيئة الاقدار اعطاء لرسالة الاسلام طريقها الاول العملي الذي قدره الله لنجاحها



الفصل الخامس

في هذا اليوم ازدهرت يثرب وفرشت ارضها بسعف النخيل وازدحمت الجموع على طرقاتها وعلى الاسطحة وذهب الفرسان يلاؤن ارباضها ، كأنهم ينتظرون قدوم زعيم .

ذلك اليوم هو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول المقابل لتموز سنة ٦٢٢

انك ترى الفرسان اخذت تشرع السيوف من بعيد تضوي كأشعة الشمس ، واخذ يدوي هتافهم ويملأ المسامع ، واخذ الناس يتنادون من يثرب وهم على رؤوس النخيل واعالي الاسطحة وقمم الجبال : ها هو ذا اقبل واخذ يحيي الفرسان ويصافحهم ثم اقبل على يثرب وجموعها الغفيرة والولدان والنساء يضربن الدفوف وينشدن الاناشيد ويزحفون تجاه الفرسان لاستقباله .

من هو ذا الذي حفلت به يثرب ، واعدت كل ما تستطيع من زينة وبهجة وكل ما يدخل في امكانها من حفاوة واكبار ، من هو ذا الذي اشرق لاستقباله ونهد للحفاوة به الولدان والنساء والشيوخ العجز والفرسان والابطال ? ! ...

من هو ذا الذي اجمع على الحفاوة به بنو الخزرج والاوس ويهود يثرب

هذا هو محمد ! هذا هو رسول الله !

انك ترى الزعماء والوجهاء ، كل يؤثر ان يزدان منزله وتزدهر حديقته لضيافته ، وكل يؤثر ان يستطير بهذا الفخر ويستكبر بهذا الشرف ويعلو على الاقران والاتراب ، والنبي ، ذو الخلق الكبير قد

ترك القياد لناقته ، يأبى الا ان يستوي بين تلك الجموع في حقوق الحرمة واحترام العواطف ، تركها لان الله الذي اختار له النبوة سوف يختار له منزله في يثرب . وما زالت كذلك تمشي بين طرقات المدينة والجموع تحيط بها ، والدفوف تدق ، والاناشيد ترنم ، حتى اناخت امام دار ابي ايوب الانصاري .

لبست يثرب بهجة الحياة الجديدة واشراقات اضواء السماء ، وعلتها الزينة ، فخلعت كل اثمال الجاهلية البالية ، خلعت حتى اسمها القديم ولبست ما حباها محمد من اسماء : طيبة ، المدينة ، العاصمة .

* * *

رأيت سابقاً محمداً وهو يدلف الى اولئك النفر الست الذين كانوا يصطلون الى نار لهم وكيف تحدث اليهم وكيف آمنوا به وبدعوته وقد نجم عن ذلك الاجتماع الصغير اجتماعان كبيران ، وقريش لاتدري شيئاً بما كان ، اجتماع بيعة العقبة الاولى وعدد رجالها اثنا عشر رجلاً وبيعة العقبة الثانية وعدد رجالها ثلاث وسبعون رجلاً وامرأتان .

انك كنت ترى اولئك الرجال يتسللون الى العقبة في الهزيع الاول من الليل ومعهم امرأتان نسيبة بنت كعب واسماء بنت عمرو . انهم ينتظرون قدوم النبي وهم في مكمنهم . وما كاد يصل اليهم همساً حتى زحفوا اليه والتفوا به ، وهنا بشر النبي برسالة ربه وتلا القرآن ووعظهم ونصح لهم ما شاء الله وقد تمت البيعة على الهجرة اليهم بعد ان اخذ لنفسه موثقاً من الله وبعد ان استوثق له عمه العباس بقوله وهو على اشراكه :

« ان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن

خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك ، والا فدعوه بين عشيرته فانهم لبمكان عظيم » .

بيد ان زعيمهم البراء بن معرور اجابه بحماسة : « والله لو كان لنا في انفسنا غير ما ننطق به لقلناه . ولكنا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهجنا دون رسول الله » .

ثم التفت الى النبي قائلا له : خذ لنفسك ولربك ما احببت . فقال النبي : « اشترط لربي ان تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً ولنفسي ان تمنعوني بما تمنعون به نساءكم وابناءكم ما كنت فيكم .

فنادى الهيثم بن التيهان : يارسول الله ان بيننا وبين الناس عهوداً وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم النبي وقال كلمته الخالدة التي تملأ صدر التاريخ وفاءً وجلالا « الدم الدم ، الهدم الهدم انا منكم وانتم مني ، احارب من حاربكم واسالم من سالمكم » .

وهكذا استقرت الرسالة لاول مرة في يثرب ، في حصنها الحصين ، بين ابطال اعدوا انفسهم للجهاد والنضال والمكافحة كما اعدوا أنفسهم لطاعة الله واستماع كلمة نبيه .

* * *

كانت الليلة ظلماء حالكة وقد أوى الناس الى مراقدهم وظل النبي ساهراً يرقب الفرصة المناسبة حتى اذا مضى الهزيع الاول والثاني من الليل ، مضى الى دار الصديق ابي بكر ومضيا معاً الى غار ثور حيث اختفيا استعداداً للهجرة .

نعم ! افلت النبي من مؤآمرة قريش الفتاكة ، وترك على فراشه

نهباً لسيوف المؤامرة البطل المضحي والمؤمن الشاب ابن عمه وربيبه عليّ بن ابي طالب!!

يا ويح قريش ! كم كانت فجيعتهم صارخة حين لم يعثروا على النبي في مرقده ، وكم صخبوا ولجوا واخذوا يضربون الارض بسيوفهم ورماحهم ، سخطاً على فرصة افلتت من ايديهم . كانوا على اهبة الفتك به ، وكانوا جميعاً يداً واحدة وقلباً واحداً تقاسموا على ان لا يدعوه يهاجر الى يثرب ، ففقدوا ذلك ، ولكن ذوي الرأي والحصافة لم يدخل اليأس الى قلوبهم وقدروا ان في الامكان انتهاز الفرصة قبل فواتها ، فلم يمض بعد تغيبه اكثر من ساعات . ومهما يكن من امر وهم عشيرة كبيرة فيها الفرسان وفيها المغامرون المضحون وفيها العداءون وفيها القيافون ، كل ذلك لا بد وان يجعل محمداً بين ايديهم مجندلا بدمه

هذا لجب قريش يكاد يستطير بالغار ، وهذا لمعان سيوفهم واشتعال اسنتهم يكاد تمزقه تمزيقاً ، وهؤلاء القفاة يشيرون باصابعهم ان محمداً قد انتهى الى هذا الكهف . والصديق ترجف بوادره فيمسك برسول الله خشية عليه ، ورسول الله تغمره الطمأنينة والثقة بالنجاة ، يقول لصاحبه : لا تحزن ان الله معنا ! ما ظنك يا ابا بكر باثنين ، الله ثالثهما ؟ !

تواريا بجناح الله واستترا ، ومن يضم جناح الله لا يضم . يتسلق بعض القفاة الى الغار وفي كل عقيدتهم ان محمداً مستخفيا فيه ولكنهم ما كادوا يطاون على فمه حتى راعتهم الحمائم الجاثمة على اوكارها وحتى دهشوا لنسيج العنكبوت الذي يملأ فم الغار واغصان العوسج الممتدة على اطرافه .

قفلوا . . . . . .

ووجوه الارض تلعنهم ، كباطل ، من جلال الحق، منهزم .

* * *

هذا رسول الله وهؤلاء هم الانصار والمهاجرون يشيدون مسجد المدينة ، الحرم ، بعد ان ابتاع ارضه رسول الله من الغلامين اليتيمين وابى ان يقبلها هبة حفظاً لحقوق الايتام، يشيدونه بانفسهم ،يحفرون اسسه ويقطعون احجاره ويحملونها ويقيمونه بيتاً لله .

وهذا هو المسجد الثاني الذي شيده رسول الله بعد مسجد قباء وقد اتخذ النبي داره ملاصقاً للمسجد يطل عليه ويخرج منه اليه، اذ المسجد في اول الهجرة هو كل شيء .

والنبي بعد الهجرة ظل على بساطة الحياة والرغبة عن زخرف الدنيا وزينتها راضياً بشظف العيش وخشونة الملبس والقلة في كل شيء .

وكان جم التواضع يتألف الاقوام على اختلاف نحلهم ومذاهبهم يقظاً فطناً خبيراً بمعرفة الطبائع البشرية المتباينة قديراً على اكتساب شتى القلوب ، انه يحادث الجميع وفيهم المسلم واليهودي والوثني والمنافق الذي يظهر الاسلام ويبطن الكفر ، يحادثهم بذلاقة منطقه وقوة حجته وصدق لهجته فيؤثر فيهم جميعاً ويوحد ذات بينهم ويحكم ويعدل في احكامه . وقد آخى بين المهاجرين والانصار وكان هو واصحابه يمثلون السلطة العليا في المدينة .

وكان دفع العدوان هو واجب المسلمين جميعاً وحلفاؤهم ،وانك ترى النصوص التي تأمر برد العدوان ووحدة الكلمة والاعتصام باوامر الله كثيرة جداً ....

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله

عليكم اذ كنتم اعداءً فألف بين قلوبكم ، فاصبحتم بنعمته اخواناً »
« والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم واولو الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله، ان الله بكل شيء عليم »

* * *

والنبي لم يرد بتأسيس دولة الاسلام الاستمتاع بالسلطان وبهجة الحياة وزينتها والغلبة والقهر والعدوان وانما يريد مملكة انسانية يعبد فيها الله وحده مع الاحتفاظ بحرية الرأي والعقيدة ولا يشرك به شيء من اشياء الكائنات المادية والمعنوية وتتساوى فيها الحقوق بين كل الامم والشعوب، وتحفظ الحريات، ويتوفر طيب العيش للجميع .

وهكذا استطاع ان يوجد للامة العربية الممزقة التي كانت تفقد الوحدة ، اجيالاً والحكومة المركزية والشرائع والدساتير، استطاع محمد ان يجعل لها حكومة مركزية لها شرائعها وقوانينها ولها مكانتها المرموقة بين الامم والشعوب ، واحترامها واكبارها .

والاسلام في تعاليمه جد رفيق ،ويسير لا عسر فيه ، وليس فيه ما يجافي العقل وينابذ المنطق والعلم. فرض لتمكين الاجتماع والتعارف الصلوات الخمس ، ولم يختر للنداء الى هذا الاجتماع غير صوت الانسان الندي الذي لا يضاهيه صوت مهما رق وعذب . وجعل القبلة بيت ابراهيم المقدس في قلب كل عربي بعد ان كانت المسجد الاقصى ! وفرض الزكاة ترفيهاً لعيش الطبقة الفقيرة واسعاداً لها كما فرض الصوم تربية للارادة الانسانية وتعويداً لها ليدخل في امكانها كبت الشهوات والقضاء على الرغبات الضارة .

* * *

اصبح الاجتماع في يثرب وارباضها والقبائل التي حولها اجتماعاً

انسانياً رفيقاً : وقضي على الاخذ بالثارات ونعرات الروح القبلية وتحاجز العواطف المتباينة ، قضى على كل اسباب الفرقة والشتات وحلت محلها السلطة التشريعية الحديثة والتنظيم الآلهي فأصبح القوم وهم اخوة في الحقوق متساوون في الواجبات لا فرق بين مسلم ومسلم في شيء ما.

وهكذا اسست الدولة الاسلامية على الديموقراطية والعدل والمساواة العملية بين الناس جميعاً ، فغير المسلمين هم ذميون لهم من الحقوق العامة السياسية والواجبات ما للمسلمين ولهم ذمة الله وذمة رسوله ، يضفي عليهم الامن وترخي عليهم الطمأنينة وعلى عقائدهم ومعاهدهم ويفسح لهم في مجال العيش ، وقد قضي على السلطات القبليه التي كان يمثلها زعماء القبائل ورؤساؤها . واصبح قوام الدولة وعماد السلطان في يد رسول الله متبعاً في كل ذلك الوحي الآلهي لا يحيد عنه ولا يقتفي الا هداه هو والمؤمنون جميعاً .

وهكذا اراد الله ان يؤسس على يد رسوله اول حكومة انسانية جمهورية الهية في العالم !! ...



الفصل السادس

ان سلسلة الحوادث التي مرت بابي بكر منذ اسلم تعطيك صورة رجل اخلص للنبي ابر الاخلاص واسماه بله الصداقة القديمة. وصلاتها الوثيقة ومتانة عراها ، والنبي الوفي اراد ان يكافيء الصدّيق صديقه القديم ورفيق هجرته والناهض بالدعوة والباذل في سبيل ذلك من ماله وذات نفسه الكثير الكثير ،فخطب اليه ابنته عائشة وهي لا تزال في السابعة من عمرها طمأنينة لقلب ابي بكر وليكون صهر رسول الله . ولكنه لم يدخل عليها الا بعد ان استكملت انوثتها ونهدت كشأن الفتيات في البلاد الحارة اي في التاسعة من عمرها بعد الهجرة ولم يتزوج عذراء غيرها .

وقد يبدو غريباً في الوسط الاوروبي هذا الزواج ولكن اذا نظرنا الى العوامل التي اقتضته والى البيئة العربية والعرف والتقاليد لا نجد فيه شيئاً من الغرابة ، كما لم يجد الاصحاب المعاصرون لمحمد جميعاً والمسلمون قديماً وحديثاً .

وانك اذا انعمت نظرك في المقاصد الاولية التي كان يريدها النبي من زواجاته ، ادركت عمق اغراضه السياسية وطريقة التأثير في نفوس القبائل وزعمائها وجلال الوفاء الذي كان يغمر نفسه ويؤثر في اتجاه اعماله قبل كل شيء .

واذا كان وفاؤه لابي بكر ورغبته في مكافأته دفعه لان يخطب ابنته عائشة وهي في السابعة من عمرها فنفس هذه الغاية هي التي دفعته لأن يتزوج سودة بنت زمعة المسلمة الكهلة الصابرة التي ناءت بالاعباء وتحملت مضض الهجرة الى الحبشة وفجيعتها بموت زوجها المسلم الغيور

في دار الغربة والتي صبرت الصبر الجميل . فلم تتبرم ولم تشتك ولم تنع على الاسلام الذي اصيبت من جرائه بما اصيبت .

وقد كانت عائشة ابنة الصديق احب نسائه اليه واقربهن الى قلبه وآثرهن الى نفسه قد وفر لها كل اسباب الراحة مستجيباً لرغباتها . وكانت النساء العجائز يدخلن اليها ويقلن لها باحترام : انت امنا الصغيرة ، ام المؤمنين .

* * *

ان ابلاغ الرسالة الى العالم هي الهدف الاول والاخير للنبي ، ولم تكن مشاغل الاسرة والحياة لتحول بينه وبين ادائها أبداً .

وانك اذا نظرت الى عنف قريش ومؤامراتها الدموية وربط جأشها على اغتياله مرارا ، بل اذا نظرت الى كل القبائل العربية حينذاك القيت الغزو جل عملها .

ولم يكن النبي الى ذلك الوقت وان كثر حوله الرجال قد اذن له في النضال ودفع العدوان بالعدوان ولكن بعد كل تلك الاعتداآت جاء الوحي الآلهي يبيح له حرب المعتدين « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » . وجاء ايضاً : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

وقد تجمهر حول النبي المسلمون واصبح قديراً على توجيه القوى الحربية التي كان يستعملها الجاهليون في سبيل الاغراض المادية وسلبها والتطاحن حولها ؟ يوجهها الى ان تكون في سبيل المثل العليا التي اوحاها الله وفي سبيل الخير والروح الديني .

وقد كان محمد نبياً ومشرعاً وسياسياً وملكاً عظيماً ، وخطيباً

مفوهاً ، وقائداً خطيراً ، محنكاً ، وان كان لم يدخل جامعة من جامعات الرومان ولا مدرسة من مدارس فارس .

ان محمداً قد كبر إسمه واعتز بربه حتى عرف باسمه وحده دون ذكر اسرته كما عرف نابوليون .

ان محمداً لنابوليون السماء !! .. (١)

ولم يكن لمحمد من عدو لدود قد استباح الحرمات واعد الأهبة للبطش به وبدعوته ، سوى مكة .

مكة التي كادت تغتاله مراراً ، مكة التي رصدت له الإعداء ، مكة التي قاومت الدعوة بحد السيف ، مكة التي اخرجته من وطنه في ظلمات الليل ، مكة التي بعثت في اثره من يأتوا به جثة هامدة .

هذه حال مكة مع محمد والمسلمين الاول . وهذه حال مكة قبل الهجرة وبعدها . فكان من الواجب ان يتخلص من هذا العدو اللدود الذي يجثم في بيت ابراهيم ويمتلك مقدراته ويقود زمام القبائل التي تحج اليه وتصرفها عن دعوة الاسلام ما وسعها الجهد .

مكة هي العقبة الكؤود بين الاسلام والقبائل ، اذن فمن الواجب

---

(١) يريد المؤلف بذلك ان نابوليون قبل شهرته الواسعة كان لا يعرف بين الناس الا بلقب العائلة : « نابوليون بونابرت » وكفى . اما محمد فان اسمه وحده يكفي للتعريف به غير محتاج الى اضافة لقب الاسرة ، بل استفاضت معرفة اسمه وحده حتى في السماء لذلك قال المؤلف :

ان محمداً لنابوليون السماء !!

ان نتخلص محمد من هذا العدو اللدود .

فبعث اولاً البطل الشديد عمه حمزة على رأس ثلاثين رجلاً ليلقي الذعر في قلوبهم ، ولكن حمزة عاد الى المدينة ولم يقاتل لان القوى التي كانت تحمي قوافل مكة كانت كبيرة .

وبعد ذلك اعطى النبي كتاباً لعبد الله بن جحش وارسله على رأس سرية مؤلفة من ثمانية رجال وامره ان يفض الكتاب بعد مسير يومين ويعمل بما فيه ، خشية ان يتسرب الخبر الى بعض المنافقين او اليهود فيفضون به الى اوليائهم من قريش .

وحين وافى نخلة عبد الله بن جحش ، كما امره رسول الله في الكتاب ، هو واصحابه ، هاجموا قافلة قريش وجاؤا بها الى المدينة ومعهم عثمان بن المغيرة والحكم بن كيسان اسيران بعد ان فرّ نوفل ابن المغيرة وقتل عمرو بن الحضرمي .

ولم يجد المشركون في مكة والمنافقون في المدينة واليهود الذين يحملون الضغينة على محمد ما يشهرون به ويتنكرون عليه سوى انه قاتل في الاشهر الحرم مما اضطر النبي الى ان يلومهم على قتالهم في الاشهر الحرم ، ولكن الله جلّت قدرته الذي لا يعبأ بتقاليد تواطأ عليها البشر ، ولا يقيم لها وزناً ، فما هي الاشهر حرم اوليست هي اشهر فرضوا فيها السلم فيما بينهم ليسيروا قوافلهم في طمأنينة وامان ؟

والاسلام يحمل السلم الى العالم اجمع ، لا لمكة ولا لجزيرة العرب وحدها بل للعالم اجمع !

فاذا كانوا هم استباحوا ان يفتنوا المؤمنين عن عقيدة الاسلام التي تحمل المثل الانسانية العليا ، افما يستبيح الاسلام قتال اولئك

المشركين في الاشهر الحرم التي تواطأت عليها تقاليدهم . نزلت الآية وهي قول الله الحكم العدل رداً على المشركين وزجراً للمنافقين واليهود : « يسألونك عن الشهر الحرام ، قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل » . ،

* * *

اعتادت بدر ان ترى القوافل متكاثفة حول آبارها الغزيرة تروي الرواحل وتملأ القرب ، فبدر في الجاهلية كانت محطة تجارية كبرى.

ما بال بدر اليوم مدججة بالسلاح ، الفرسان تصول وتجول في انحائها واعلام قريش تخفق في اجواز الفضاء ، بدر متحفزة للوثوب تنتظر المعركة الفاصلة ومحمد بعدده الضئيل والمشركون بخيلهم ورجلهم يعتقدون الفوز والنصر ، وما محمد وما جنوده حيال فرسانهم وابطالهم

انهم نسوا الايمان الذي ربط ما بين الافراد القلائل الذين لا يتجاوزون الثلاثمئة والثلاثة والعشرين جندياً ونسوا القائد المدرب البصير بتعبئة الجنود ، الخبير بتصريف الحرب ، الفطن الذي يعرف كيف يكتسب ، محمداً رسول الله !

بل نسوا السماء وملائكتها والارواح وقواها ، بل نسوا الله الذي يؤيد نبيه بنصره على قلة جنده وندرة اسلحته .

اعتز المشركون بكثرتهم وفرسانهم فنزلوا الى المعركة ولكنهم لم يلبثوا غير قليل حتى أهيل ابطالهم وكبراؤهم جثثاً هامدة مقرحة مبتورة الاطراف في قليب بدر وحتى اسر الشطر الثاني وسلسلوا في الاغلال واذا محمد رسول الله يقف في ظلمات الليل ويناديهم وهم

جيف ، وحدا واحدا ، ثم يقول لهم : اني قد رأيت ما وعدني ربي حقاً فما رأيتم انتم ؟ !

واذا الملاك جبريل يهبط بهذه الآيات التي تذكر فضل الله على نبيه وعلي المؤمنين وتذكر تأييده ونصره :

« اذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب اسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعـاد ولكن ليقضي الله امراً كان مفعولاً ، ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيّ عن بينة ، وان الله لسميع عليم ، اذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو اراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الامر ، ولكن الله سلم ، انه عليم بذات الصدور ، واذ يريكموهم اذ التقيتم في اعينكم قليلاً ويقللكم في اعينهم ليقضي الله امراً كان مفعولاً ، والى الله ترجع الامور » .

« ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا او يكبتهم فينقلبوا خائبين » .

هذه هي معركة بدر التي تزف بأعلامها في نفس الحديث وتبدو واضحة جلية لدى انعام النظر فيها ، هذه هي معركة الاسلام الفاصلة لا لأن القوم تحاربوا فيها بالطائرات ولا الدبابات ولا بالاسلحة الثقيلة المعروفة في عصرهم بل حارب الحق الباطل فصرعه ، والنور الظلمة فابادها ، والخير الشر فقضى عليه !! ...

الفصل السابع

كان الهواء يمر طلقاً بالنجاشي وهو في حديقة قصره وقد غادر عرشه وجلس الى فتية من العرب يرتدون ثيابهم الزاهية وقد جلس جلستهم وأخذ يتحدث اليهم واشمة القمر تنسكب كذوب اللجين او اشعة الشمس من خلف الضباب. وكان مرحاً طروباً اليوم يطفر من البشر لا كعادته في جده واخذه في ادارة دولته. قال لهم: ارأيتم بدرا؟ قالوا: اجل هي مـتراد القوافل ومحط الحجيج، منها يستقون وفيها يقيلون.

— اما علمتم ما جرى بها؟

— لا! لا!

— ان الاخبار تطايرت في اقطار الارض فبلغت الهندو تجاوزت اسوار الصين وسقطت في قصور القسطنطينية وانقضت على عرش كسرى

— اي اخبار؟ اي اخبار؟

— انتصار عظيم، ويوم اغر محجل، له ما بعده وعزّة من الله زخرها لنبيه لتكون لعنة على الشرك والمشركين.

— ماذا؟ ماذا؟

— ان محمداً انتصر على قريش، ان رسول الله رفع راية الله ترفرف بالعزة والسلطان.

هذه عزة قريش هوت في اعماق الرموس،

* * *

سيقت الغنائم والاسرى الى المدينة وعلم المسلمون ان الله ايّد نبيه واعزّ جنده واخذوا ينتظرون حكم الله في هذه الغنائم الجرية

فاذا الوحي يهبط على قلب نبيه بقوله :

« واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير »

وهكذا وزع الغنائم بالقسط بين المسلمين

* * *

لم يحلق نسر الأمن العظيم ويضفي اجنحته في المدينة وارباضها ومن حولها من الاعراب ما اضفاه يوم بدر يوم طعن قلوب المنافقين والمشركين باسهمه المسمومة كما افرح قلوب المؤمنين وازهاها بعزة الله وملأها طمأنينة بوعده ، يوم عظيم ستعقبه حوادث عظام .

ان رسول الله هو السيد المطاع ، المطلق الارادة ، المتقيد بما يوحيه الله اليه لخير الانسانية ، واسعادها ، وتوحيد كلمتها . وكم عفا النبي وغض الطرف عن اذى الاعراب المجاورين للمدينة على كثرة اذاهم وطول فتنهم وتأرثها .

وانك لا تجد شيئاً من تلك الغنائم ظل مدخرا في يد النبي فقد تلقفتها الايدي من يده السمحة البرة السكوب وامتلأت منها دور الانصار والمهاجرين .

اجل لا تجد شيئاً ، فهذا عليّ يتزوج ابنة النبي ولاتجد في بيته وطاءً ولا غطاءً ، بل ليس له ما يتبلغ به سوى حفنة من الرطب يحملها مساءً بعد عمل يقوم به جهد نهاره ليهودي .

* * *

وكان اليهود ينعمون في المدينة ويسيطرون على ثروتها الاقتصادية وعلى اسواقها التجارية ، وكان بنو قينقاع يشتغلون بصنع الاسلحة

ولكنهم كانوا يشعلون ابداً نار العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج من جهة وبينهم وبين سواهم من جهة ثانية لتبقى لهم العزة على الجميع والسلطان ، كما كانوا يرون انفسهم انبل من العرب ارومة واسمى منهم نجاراً لانهم يعتقدون انهم شعب الله المختار . والنبي لن يدخر وسعاً في التقرب اليهم والذود عنهم واجراء المعاهدات التي تحفظ الأمن والمساواة بين المسلمين وبينهم ، ولكن غاظهم كل الغيظ ان يأتي نبي من ولد اسماعيل ، وفي زعمهم انه ابن الجارية ، كأن ابن الأمة لا يستحق الكرامة من الله وكأن الله يحابي خلقه ، يعز هؤلاء ويذل هؤلاء ، لغير ما سبب .

لم يؤمنوا ان الله اختار نبياً من ولد اسماعيل ، لذلك قابلوا كل الاحسان الذي اجراه النبي عليهم بالاساءة فلم يطمأنوا اليه ولم يفوا بالعهود التي اخذها عليهم ، ولم يحافظوا على كرامة المسلمين كما حافظ المسلمون على كرامتهم ، بل شق الغيظ قلوبهم حين رأوا الوحدة الحقيقية تضم القبائل المتفرقة وروح الاسلام تلف قلوب الجميع بزباطها المقدس .

شق الغيظ قلوبهم فكانوا يكتمونه حيناً ويعجزهم حيناً فيبدونه : يبدونه في اعمالهم واقوالهم ، وفي دسهم . وكان النبي يحتمل منهم كل ذلك ، رجاء ان يثوبوا الى رشدهم ورغبة في ان يضمهم لواء الإسلام .

كل ذلك وهم على ما هم عليه غيظاً وحنقاً .

ارادوا ان ينتقموا من المسلمين وان يفجعوهم في اعز شيء لديهم ، في اعراضهم . فخاط احد بني قينقاع لامرأة من الانصار ذيل ثوبها في خمار رأسها من حيث لا تدري حتى اذا قامت انكشفت عورتها

لدى الجميع ، فوقعت على الارض مغشياً عليها من الحياء ، واليهود يضحكون من كل جانب ، فرأى احـد المسلمين هذا المنظر الاليم فـلم يستطع صبراً ، فعدى على اليهودي وقتله ، فعدى اليهود على المسلم فقتلوه ، وهنا تنادى الفريقان الى القتال . ولكن انتهى الامر بفرض الجلاء عليهم دون ان يحملوا متاعاً او اثاثاً .

وقد امض" قريش واثار ضغائنها ان رأت شوكة الاسلام تشتد وتقوى وتحترم بين القبائـل وشوكتهم يخفض من شأنهـا وتضعف منزلتهم بين الناس ، ففكر ابو سفيان ان يسترد سلطان قريش في انفس القبائل فجهز معركة وهجم على المدينة على حين غرة من اهلها ، فقتل شخصين واحرق بيتين ونخيلا ثم فر هارباً حين تنادى الناس الى السلاح . ولكن النبي لم يدعه يذهب سالماً مطمئناً ، بـل لحقه بجنوده فخشي ان يدرك فأخذ يتخفف بطرح الاثقال ، فطرح غرائر من السويق فغنمها المسلمون وعادوا ، وسميت هذه الغزوة «بغزوة السويق»

ويلاحظ القاريء هنا ان الانتصارات حالفت الغزوات الاسلامية الاولى وتتابعت الغنائم على اهل يثرب وتدفقت عليهم الاموال ، ولكن النبي ظل كحاله الاول ، لم يغير شيئاً من ملبسه او مطعمه اومسكنه ، ظل في شظف العيش ، وخشن الملبس وضؤولة المسكن !!...

* * *

كان المسلمون يشيرون على فارس ملتثم يثير اطراد جواده الغبار صبيحة يوم ، وما كاد ذلك الفارس يقترب منهم حتى ترجل واعطى النبي رسالة ، فأقرأها النبي لبعض كتـابه فاذا هي رسالة من عمـه العباس فيها انذار بحملة قريش اليه التي تعد ثلاثة آلاف من الرجال فيهم سبعمئة مدرع وثلاثمئة فارس والف بعير .

انه جيش جرار تثيره حماسة النساء وزغاريدهن ، وقرع الطبول وقصائد الشعراء الحماسيين ، ورغبة في الثأر لقتلى بدر ..

وحين تسامع المسلمون بقدوم الحملة ، التف حول النبي الف رجل من الانصار يحملون السلاح مستعدين للحرب .

فاخذ النبي يستشير اصحابه كعادته فقر رأيه ورأي شيوخهم على البقاء في المدينة وترك الجيش يدخلها ، فان الانتصار عليهم اضمن ، ولكن حماسة الذين لم يدركوا بدراً وبالاحرى الشباب واصرارهم على الخروج ، وهم الكثرة الساحقة ، اضطرت النبي ان يذعن لرأيهم وان يرضى بالخروج تقريراً لرأي الاكثرية .

واخذ النبي يستعرض الجيوش ويهيء نظامها بعد ان ارتدى لامة حربه ، وامسك برمحه ، وتقلد سيفه ، وامتطى صهوة جواده .

وفي طريقه عاد رئيس المنافقين عبد الله بثلاثمئة من اتباعه فاصبح المسلمون بعد ذلك سبعمئة رجل .

ولعل قادة الجيوش اليوم يدركون تفوق النبي الحربي وقدرته العجيبة في تنظيمه الفني للجيش ، فقد نظم الساقة والجناحين واحتاط لظهر الجيش من غائلة الكمين فترك الرماة على نشز من الارض قائلاً لهم : لا تبرحوا مكانكم سواء انتصرنا او انكسرنا وهو يريد بذلك ان لا يعجلهم الفوز فيطمعون بالغنائم فيتركون ظهر الجيش عرضة لطعنات الكمين .

وهكذا وقع ماقدره النبي ، فقد غرّ انتصار المسلمين الرماة في اول الامر ، وتراءت لهم الاسلاب والغنائم تناديهم وتحفزهم الى ترك مواطنهم .

وحين كثر القتل في المشركين ترك فعلاً كثير من الرماة مراكزهم ورئيسهم عبد الله يناديهم ويحذرهم عاقبة الامر ويذكرهم بوصية النبي

وقد فطن خالد بن الوليد رئيس الكمين لترك الرماة موطنهم، فكرّ على الافراد القلائل الذين ثبتوا عند امر النبي وفضلوا الموت على مخالفته، ثم كر على المسلمين من خلف وعمل فيهم السيف فالتاث امر المسلمين واضطرب جمعهم، وفروا من الميدان طلباً للحياة.

ولم يثبت مع النبي الا قدامى المهاجرين ورؤوس الانصار حتى وقع النبي في شق من الارض وضربه احد المشركين فشج وجهه واطاح رباعيته، كما حاول احدهم ان يقتله، فلما لم يجد النبي بداً من النجاة الا بقتله، ضربه بسهم فارداه قتيلاً. ولم يقتل محمد على قوة بأسه، وشدة شكيمته، وبطولته النادرة انساناً سواه.

وتنادى المشركون: قتل محمد! قتل محمد! فتفرق المسلمون وجن جنونهم، ولكن عمر كاد ينادي اخسأوا لم تقتلوا محمد ولكن النبي اسكته.

انصرف المشركون بعد هذا الانتصار الموقت وقد تركوا خلفهم سبعين قتيلاً منهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب الذي حزن له النبي اشد الحزن، وبالاحرى، بعد ان مثلت به هند، ولاكت كبده، وجدعت انفه، واعتقت عبدها وحشي الذي رماه بنبلته!!

والمسؤولية في فشل هذه المعركة انما تقع على عاتق اولئك الرماة الذين غرهم الطمع والنصر العاجل فتركوا موطن الدفاع من الخلف مما ادّى الى الفشل، ولو انهم ثبتوا قليلاً وتريثوا لاتتهم الغنائم تسعى اليهم ولما قتلوا واسخطوا الله بمخالفتهم لامر رسوله الذي ادرك بفراسته وعبقريته العسكرية خطر الكمين.

« ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم بأذنه، حتى اذا فشلتم

وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما اراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، إذ تصعدون ولا تلون على احد والرسول يدعوكم في اخراكم فاثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما اصابكم ، والله خبير بما تعملون ، ثم انزل عليكم من بعد الغم امنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد اهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الامر من شيء ، قل ان الامر كله لله ، يخفون في انفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور ، ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ، ان الله غفور حليم ، يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض او كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ، والله يحيي ويميت ، والله بما تعملون بصير ، ولئن قتلتم في سبيل الله او متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ، ولئن متم او قتلتم لالى الله تحشرون ، فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم في الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين ، ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وقد اكسبت هذه المعركة المسلمين العقيدة الثابتة بان ادنى مخالفة للنبي تنهار بهم وتودي ، وقد ازدادت الثقة بالنبي وبارشاده ونصائحه وفهموا ان كل نجاح وكل نصر وكل ما يكسبونه في الحياة من عزة ومكانة انما هو رهن بطاعته .

ومعركة احد من الناحية النفسية درس عميق افاد المسلمين كثيراً فيما بعد وجعلهم يقفون عند اوامر النبي متقيدين بكل ما يقوله .

* * *

كان يلذ للنبي ويرضيه جداً ان يجد اعلام الاسلام ترفرف في كل قبيلة وناحية ، وكل جهاده وجهوده لم تكن الا في سبيل القضاء على الشرك والاشراك ، وعبادة الآلهة المتخذة من اشياء المادة وتثبيت عبادة الله الخالق وحده من غير شريك .

وقد جاء اليه عامر بن مالك امير نجد يطلب اليه ان يرسل فريقاً من القراء ينشرون الاسلام في نجد ويعلمونه الكتاب ويفقهونه في الدين فلم يطمئن النبي الى اقواله وان كان يرغب كل الرغبة في نشر الاسلام في ربوع نجد ، الا ان عامراً تكفل بحماية القراء والذود عنهم واعطى عهوده ومواثيقه فأمن النبي على رجاله واختار منهم سبعين رجلاً للقيام بواجب الدعاية والتبشير وتعليم الناس ما اوحى الله ، وعلى رأسهم المنذر بن عمر .

وما كاد يدخل القراء السبعون نجداً حتى ارسلوا كتاب رسول الله الى عامر ، فلم يعد الرسول وانما هجم عليهم قوم عامر يفتكون بهم وهم عزل من السلاح ولم يفلت من القتل سوى كعب بن زيد افلت باعجوبة .

ولم يحزن النبي على قتلى ، ما حزن على هؤلاء القراء الذين اعدهم

بنفسه للارشاد والتبليغ . وقد تألم ان يقع في فخاخ المشركين واكاذيبهم وعهودهم واحابيلهم للمرة الثانية فقد بعث ستاً من القراء لبعض القبائل المجاورين للمدينة ففتكوا بهم غدراً. واسروا اثنين منهم ودفعوهما الى قريش بيعاً .

وقد ابتاع خبيباً احد القراء صخر بن ابي اهاب ليقتله ثأراً لابيه المقتول في غزوة بدر . وقد اقتادوه الى الكعبة وطفقوا يرجمونه بالحجارة. وحين ارادوا قتله طلب اليهم ان يصلي ركعتين وقد صلاهما ركعتين خفيفتين ثم قال لهم : فوالله لولا اني خشيت ان تظنوا ان بي خوفاً من الموت لأطلتها ، فعدوا عليه وقتلوه شر قتلة .

ولم يكن سرور اليهود بمقتل القراء اقل من سرورهم بخذلان أحد . وقد جرأهم توالي النكبات بالمسلمين حتى بعثوا الى النبي يطلبون دية شخصين لهم قتلهم المسلمون خطأ . فاجابهم النبي الى طلبهم لانه حق وعدل . وقد دعوه الى مأدبة اقاموها له في ديارهم فلبى الدعوة ولكنهم كانوا يريدون اغتياله فقد حاولوا ان يقذفوا عليه حجراً ضخماً من عل، ففطن النبي لمرادهم فترك وليمتهم وعاد مغضباً وجهز عليهم حملة ،فحين رأوا الجد تحصنوا بآطامهم ،فحاصرهم المسلمون واطالوا الحصار بل طفقوا يقطعون بعض نخيلهم فلما رأوا ذلك فاوضوه على ترك القتال بان يدعهم يجلون من المدينة .

وهكذا تم جلاؤهم شرط ان لا يأخذوا معهم شيئاً من متاعهم سوى حمل بعير لكل ثلاثة منهم . فجلوا الى خيبر واذرعات. وكان النبي معهم جد رحيم حيث لم يقابل ارادة الفتك به واغتياله بفتك واغتيال مثله .

ولم يبق في المدينة من قبائل اليهود سوى بني قريظة الذين غدروا بالمسلمين شر الغدر في احرج المواطن كما ستعرفه، فاستحقوا بغدرهم القتل ولم يؤثر النبي نفسه بشيء من الغنائم كعادته بل افاضها على فقراء المهاجرين الاولين فكان عدله في تقسيم الغنائم باعثاً على رضى الجميع.



الفصل الثامن

لقد توطد شأن الحكومة الاسلامية الاولى التي اسسها النبي ، وقد جهز فيلقاً جراراً وقاده بنفسه الى بدر بعد ان انذر ابا سفيان بذلك ولكن الرعب قد تقاذف في قلوب المشركين فاقعدهم عن الموعد ، فألفى النبي بدراً خالية الا من جيوشه ، ولكنه تاجر وربح وثاب الى المدينة آمناً مطمئناً هو ومن معه .

وقد فرض الوحي الاسلامي للنبي خمس الغنائم لكي ينفقها في اسعاد الطبقة الفقيرة وما تقتضيه حياته الخاصة والدعوة الى الله وذوي القربى . وقد نبهت حياة ذوي الحاجة وترفهت وامست خصبة رفافة تنعم فيها المهاجرون الاول الذين فقدوا كل ثرواتهم حين اسلموا وقعدوا عن تجاراتهم واعمالهم واخذوا ينفقون ثرواتهم في سبيل الاسلام .
والنبي لا يريد من مجتمعه ان ينغمر في الرفاهية والترف ويتماع في شهوات النفس ولذات العيش وانما يريده مجتمعاً ينعم بالعيش الى حد ، ينعم ولا يسرف ، يريده ان يعيش عيشة فيها شيء من الخشونة وشيء من الصبر والجلد والاحتمال ، من اجل ذلك ، جاء تحريم الخمرة التي تهدم حيوية الجسم المادية والمعنوية ، وتشل الحركة الانسانية الخيرة والعاطفة الكريمة وتهدم متانة الجسم الصحية ، وحرّم الميسر لانه يريد من افراد المجتمع ان يتمرسوا بالربح الذي يكتسب بالجهد والعمل الحر الشريف ، وكذلك قضي على الخرافات التي تغمر المجتمع وتعبث بالعقبات وتشل الارادة العملية المبنية على الواقع العملي المجرد ، فحرم الكهانة والتنجيم والسحر .

وقد كان هو المثل الاعلى لكل فرد من افراد المجتمع ، المثل الاعلى في ثباته وجهوده وجبروت نضاله و كفاحه وصبره على الاهوال واقتحامه المشاق .

والديموقراطية الاسلامية تبدو في ارفع سبلها واقوم طرقها الشرعية في حياة النبي ، فكان وهو في ارفع ذروات المجد لا يزيد عن غيره من الافراد بل كانت داره تغشاها الناس زرافات ووحدانا ، اي كانت بيت الامة . وقد اسرف الاعراب الذين يفقدون الذوق الاجتماعي في مضايقة النبي صباحاً ومساءً ، ليلاً ونهاراً ، فكان من الحكمة ان يوضع من حد لهذا الضيق الذي كان يفقده حتى الساعة التي يطمأن فيها الى مرقده . والاعراب اعز شيء لديهم المال ، فجاء النص لتخفيف زياراتهم بطلب الانفاق على الفقراء وتقديم الصدقات لهم قبل الدخول على النبي ، وبذلك استراح النبي شيئاً ما .

* * *

كانت نكبة القراء الذين قتلوا غدراً في نجد سبب احزان متواصلة للنبي فكم جهد في تعليمهم وارشادهم ، وكم سهر على تلقينهم التعاليم الاسلامية والقرآن ، حتى اصبحوا قادرين على بث الدعوة واذاعتها بين الناس .

نعم ! كانت فجيعة القراء ابداً تملأ نفس النبي وقد جهز النبي جيشاً يريد نجداً حيث قتل القراء ، ولكنهم فرّوا من جهة ولم يبق احد مستعد للكفاح . وهنا اتكأ النبي الى شجرة منفرداً بعد ان غسل ثوبه وعرّضه للشمس . فانتهز فرصة انفراده دعثور رئيس القوم ، فهجم عليه قائلاً : من يمنعك مني يا محمد ، والسيف مسلط في

راحته ، فنظر اليه النبي رابط الجأش وقال : « الله يمنعني منك » .
رجفت يدا دعثور حين نطق النبي باسم الله وهوى السيف على الارض فتناوله النبي وشهره في وجه دعثور قائلاً : « من يمنعك مني ؟ »
فأجابه : عفوك وصفحك !
وهكذا اعطى النبي درساً بليغاً لاعظم العفو وابلغ الصفح لالدّ عدو !

* * *

جاء آنفاً ان النبي خرج الى بدر وفاءً لوعده وتحدياً لقريش واظهاراً للمعنوية الاسلامية .
ثاب الى المدينة وقد ولدت ابنته الزهراء ولدها العظيم حسيناً بعد ولادة الحسن بعام .
وكان النبي جد عطوف على الحسن والحسين ، رفيقاً بهما ، يجد فيهما عزاء عاطفة الابوّة . كان يفقد الذرية الذين يرثون ملكه الضخم العريض وسلطانه الواسع ولكنه كان يجد في الحسن والحسين العزاء والسلوى .

* * *

حفلت خيبر بيهود المدينة بني النضير وانزلتهم في دورهم وشاركتهم في اعمالهم ، ولكنهم حقدوا على الاسلام وعلى النبي افدح الحقد وكانوا ينتظرون الظروف لاثارة جزيرة العرب ضد الاسلام لكي يتخلصوا من محمد ويثوبوا الى يثرب . وانفاذاً لخطتهم التي رسموها لاثارة جزيرة العرب ، بعثوا البعوث الى نجد والى مكة وابتاعوا من الاسلحة ما استطاعوا ، وفرقوا الاموال والعتاد وانفقوا من اجل ذلك كل ثرواتهم المدخرة ، بل رهنوا حتى مزارعهم وما يملكون .
وقد استجابت قريش لفكرة الحرب والقضاء على محمد ودولته

وجهزوا هم ومن جاورهم من القبائل في نجد وغيرها جيشاً جراراً بلغت جنوده العشرة آلاف ،وكان يرأس الجميع ابو سفيان كل هذا الجيش يقصد هدم باني مجد العرب والانسانية ، يقصد هدم محمد بن عبد الله رسول الله .

اجتمع النبي الى اركان حربه ورجال دولته وطفقوا يتداولون شأن الجيوش الزاحفة اليهم ويرسمون خطط المقاومة ، وكان الجميع في هذه المرة يتقيدون جداً برأي النبي ويستمسكون باشارته وما يهدف اليه .

وكان من بينهم رجل فارسي خبر الحياة طويلاً وتقلب في النعماء والضراء وشاهد اهوال الحرب لدى العرب والعجم هو سلمان. اشار الى النبي ان يتخذ في ثغرة المدينة الكائنة في الناحية الشرقية خندقاً يحول ما بين الاعداء وبين انفاذ خطتهم في اقتحامها .

والمدينة محصنة بالجبال والغابات والبساتين من كل جهاتها .

نعم هناك ثغرة يمكن للعدوان ينفذ اليهم منها وهي مساكن بني قريظة . ولكن بني قريظة كانوا لا يزالون محافظين على عهودهم وصدقهم مع رسول الله فلا خوف من جهتهم .

هذا ابو سيفان قائد الجيش ، وهؤلاء الابطال حوله قد فغروا افواههم دهشة واخذ بعضهم ينظر الى بعض نظرات غريبة ، ماذا رأوا ؟ ما هذا الذي امامهم ؟ واي شيء حال ما بينهم وبين الهجوم على محمد ؟

خندق ؟ خندق ؟ من حفره ؟ وكيف كان ؟ ومن اين للعرب هذا التنظيم وهم قوم رحل يعرفون الكفاح وجهاً لوجه لا خاف

الاسوار والخنادق .

انهم قد سروا قبلاً بصهيل الخيل ولمعان الاسنة وزغردة النساء ومنوا انفسهم ما شاؤوا بتمر المدينة الحلو ، ومائها العذب الغزير ، وظلالها الوارفة ، وغنائمها الجمة ، والقضاء على محمد واصحابه ، منوا انفسهم بذلك فاذا هذا الخندق اللعين فاغراً فاه كفوهة الجحيم يبتلع تلك الآمال في ساعة واحدة .

ما الحيلة ومايصنع وفي الجيش ابطال مغاوير كعمر بن ود العامري ?!

ان هؤلاء الابطال لم يكترثوا للخندق واستهانوا به فوثبوا الى الجيش ، وها انت ذا تشاهد عمراً في الجهة الثانية يلوح بسيفه ويصرخ منادياً : البراز ! البراز ! ...

من لعمر الجبار ، من يستطيع مجابهة هذا الخصم العنيد الذي جمع الى البسالة الخبرة الطويلة بالحرب ?

خرج اليه بطل الاسلام وفارس بني هاشم وابن عم النبي وربيبه سيف الله الغالب ، عليّ بن ابي طالب ، خرج اليه هازئاً ساخراً به كأنه خلق هين ، فاستشاط غضباً حين رآه : اما رأى قومك من هو اسنّ منك ، عد يا بني فان حياتك الغضة عزيزة علي ...

— ولكن اريد ان اقتلك ، وهنا يزمجر في وجهه قائلاً :

— عد ! عد ! والا تركتك شطرين عبرة لقومك .

وهنا يصرخ عليّ الشاب البطل صرخةً كأنها صاعقة انبعثت من خلال السحب ويهجم عليه هجمة عنيفة يتطاير لها الغبار وهو يقول : خذها ، خذها ايها اللعين .

فيأخذ الغضب فارس الجاهلية وبطلها عمراً فينقض على عليّ

كأنه السيل المنهمر من اعالي الجبال ، وهنا رجفت القلوب ، وشخصت الابصار ، وارهفت الآذان ، وانتظر الجيشان نتيجة المعركة ، فاما نصر للمسلمين وخذلان للشرك ان استطاع عليّ الشاب ان يقضي على هذا البطل العنيد ، واما سوى ذلك فيما لو قتل بطل الاسلام عليّ .

عليّ ، عليّ يقتل ؟ ايقتل في معركة حرب ؟ تالله لو استحالت الصحراء جنوداً وكل واحد منهم يحمل عزيمة عمرو ، وجبروت عمرو وقوة عمرو ، وفروسية عمرو ، لما استطاعوا له قتلاً . ان علياً لا يقتل الا غيلة .

ان علياً صرخ في وجه عمرو صرخة تردد صداها في اودية المدينة وسهوبها ورجعت هولها جبالها ، صرخة تبعتها لمعان برق خاطف جندلت عمراً وجعلته شطرين على وجه الثرى .

صرخ المسلمون جميعاً : الله اكبر ، الله اكبر ! ان علياً قتل عمراً !!..

الا ان قتل عمرو انذار بفشل جيش ابي سفيان ، انذار بالنهاية التي انتهوا بها ، انذار بالخيبة التي لحقت بهم .

قد اطمأن المسلمون الى النجاة من شرك العدو وحبائله في اول الامر وان رابتهم كثرته ، ولكن الذي زلزل قلوبهم زلزالا شديداً وارعبهم كل الرعب هو نقض بني قريظة للعهود واعلان انضمامهم الى العدو واستعدادهم لفتح ثغرتهم لمرور الجيوش الى المدينة .

وقد جاء ضغثاً على ابالة تخاذل المنافقين عن رسول الله حين اشتد الامر وتيقنوا الهلاك وقالوا ان بيوتهم عورة وما هي بعورة ، وقالوا اين تلك الوعود التي وعدنا اياها محمد وكيف نفتح ممالك كسرى وقيصر واحدنا لا يستطيع ان يحرس داره ؟ ما هي الا غرور في غرور .

وقد عدا ضعف هؤلاء المنافقين وتخاذلهم قلوب المؤمنين حتى ظنوا

بالله ورسوله الظنون ، وزاغت ابصارهم وبلغت قلوبهم الحناجر .

ولم تكن معجزة النبي فقط في ضرب الصخرة بمعوله حين انهالت ككثيب الرمل بين يديه ، فشأن الله ان يؤيد رسله ، وما الضيق الذي ينتاب الرسل والشدائد التي تنزل لهم والنوازل الا امتحاناً لنفوس المؤمنين وتمييزاً للخبيث من الطيب .

وهكذا جاء نصر الله في الساعة الاخيرة ، فقد اسلم نعيم بن مسعود الغطفاني وجاء ليلاً الى النبي وقال له : مُرني بما شئت فقد اسلمت .

ادرك نعيم مكائد اليهود ، وادرك مقاصد قريش وقومهم الذين انساقوا وراءهم انسياق الانعام ، لا يعلمون انهم يهدمون الامجاد التي يريدها الله لهم والعز والسلطان .

ادرك كل ذلك نعيم واعلن اسلامه لرسول الله وطلب اليه ان يكلفه بهذه الشدة بعمل ، فقال له رسول الله : الحرب خدعة خذلهم ، فذهب نعيم وفتن ما بين قريش وغطفان وبين اليهود ، فطلبت قريش الى قريظة ان تفتح ثغرتها وتشترك في الحرب فأبت وقالت غداً السبت ، ثم طلبت رهائن لها من قريش ، كما قال لها نعيم .

وهكذا تداعى اعتقاد ابي سفيان بصدق اليهود وادرك انهم مسلمون الغنائم لمحمد كما قال نعيم . ثم ارسل الله ريحاً صرصراً عاتية سلطها عليهم تقتلع خيامهم وتملأ اعينهم وافواههم وآذانهم بالرمال وقد نفدت ازوادهم وشحت المياه بين يديهم فلم يجدوا بداً من النجاة بارواحهم

وهكذا خابت اليهود في ما عقدت من مكائد ضد الاسلام ، ونصر الله عبده محمداً واعز جنده وهزم الاحزاب وحده !

صدق وعد الله .

* * *

الله اكبر ! الله اكبر ! ان اليوم الخامس عشر من نيسان

سنة ٦٢٧ ليوم عظيم في الاسلام ! !

* * *

اعتقد اصحاب النبي ان لا امل بنصرة الاسلام ، واليهود في جزيرة العرب، اليهود الذين لم يحتفظوا بالعهود ، وقد خانوا مسؤلية العهد في وصايا موسى فطرحوها وراءهم ظهرياً . كادوا ان يقضوا على النبي واصحابه بخيانتهم ونقضهم العهود لولا رعاية الله وحفظه .
اذن فلا امل لاي عمل اسلامي بالنجاح ولا رجاء في اي نصر ، وبنو قريظة احياء .
فساق النبي بعد ان ولت الاحزاب جنوده الى بني قريظة واحاط بهم اياماً حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ الذي حكم بقتل المقاتلة .
وما كان اكره شيء للنبي من قتلهم ، ولكن الطبيب الماهر تلجأوه ضرورات الابقاء على الحياة احياناً الى ان يبتر بعض الاعضاء المسمومة حفظاً للبعض الآخر .
وهكذا لو ظل اولئك اليهود لظل السم ينغل في وسط الجسم الاسلامي ويأتي على كل نصر .

* * *

بعد انتهاء القبائل اليهودية في يثرب وبعد ان استتب سلطان الدولة الاسلامية فكر محمد ان يربط صلاته باواصر القربى بينه وبين زعماء القبائل . وللقرابة في المجتمع القبلي مكانتها العميقة التي لا تنكر .
من اجل ذلك قضت الظروف على النبي ان يعدد زوجاته وان كنّ كبيرات في السن ومطلقات لازواج آخرين او ارامل ، اذ الغرض الوحيد هو توثيق اواصر الصلة .

فكما كافأ النبي ابا بكر على جهاده واخلاصه بان تزوج ابنته عائشة فقد اعطى مثل هذه المكافأة لعمر حين تزوج ابنته حفصة .

* * *

يصعب جداً على العقلية الامية البدوية ان تتحلل من تقاليدها وعاداتها اذ هي ترى التقاليد والعادات كل شيء في الحياة . فالتخلي عنها هو التخلي عن الحياة نفسها .

واهون شيء عند الرجل المثقف ان يتخلى عن كل شيء وان يعتنق سواه ، اذا بدا له صوابه وادرك انه حق، من اجل ذلك كان يعاني النبي اشد المعاناة كلما اراد ان يركز فكرة جديدة وان يهدم فكرة عتيقة .

وها هو ذا يقول في حق البيت الحرام مخاطباً عائشة « لولا ان قومك حديثو عهد بالاسلام ، لهدمت البيت واشدته على قواعد ابراهيم »

ويرى القاري، كيف استصعب المسلمون ان يتحللوا من الاحرام قبل ان يؤدوا فريضة الحج حين اقتضت الظروف ذلك . ولولا ان محمداً نفسه بادر فحلق رأسه وتحلل من الاحرام لما فعل ذلك مسلم واحد.

وانك تفهم من ذلك ان قضية التبني المتعارفة في الجاهلية ، والتي كانت تخلط الانساب ، وتجعل المتبنى في حكم الابن الحقيقي، قضية معقدة في الاجتماع العربي القديم ، وليس في استطاعة احد ان يحل عقدها الا الاسلام ! !

هذا زيد بن حارثه الذي تبناه محمد في الاسلام وهو عبده وعتيقه وقد زوجه من ابنة عمته زينب الهاشمية . انها تزوجته على مضض . اجل انها اكبرت ان تأخذ عبدا وهي السيدة الهاشمية الرفيعة، ابنة عمة رسول الله وهي على اكبارها لمحمد وصدق ايمانها به لم ترضخ للزواج من زيد

الا حين نزلت في حقها الآية : « وليس لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً » .

رضيت على مضض وهي لا تدري ، الحكمة الالهية في ارغامها على ان تتزوج عبدا ، ولم تفطن لهذا السر الا حين ضاق زيد ذرعاً بكبريائها ولم يعد قادرا على الاحتمال والبقاء بجانبها ، فاراد طلاقها واستشار النبي في ذلك ، فقال له : « امسك عليك زوجك » . فليس من المعقول ان النبي يجهل زينب وهو الذي زوجها لعبده ، ولكن الله اراد ان يطلقها زيد متبناه وان يتزوجها محمد نفسه ليقضي على تقليد جاهلي بال ليس له من سلطان .

لذلك جاء في الكتاب « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان امر الله مفعولاً » .

اجل ! اجل ! تمت حكمة الله وتداعى التقليد الجاهلي وانتصب الحكم الاسلامي ، كل انسان يدعى لابيه !



الفصل التاسع

مرت ستة اشهر على غزوة الاحزاب وانتهاء امر بني قريظة وقد اعدّ النبي جيشاً يؤدب بني المصطلق الذين والوا قريشاً وعزموا على غزو المدينة. ولم يكد يفضي الى بئرهم المريسيع حتى فروا جميعاً فاستاق الغنائم وثاب مظفراً عزيزا هو وجيشه. وكان من جملة الغنائم جويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق ، فرأى النبي ان يتزوجها ابدالاً للعداوة بالقربى وتأليفاً لبني المصطلق واطلاقاً للاسيرات منهم. وقد اسلم من جراء هذه السياسة الحكيمة التي اتخذها النبي قاعدة لاعماله ، بنو المصطلق كافة .

وبينما كان الجيش يقفل الى المدينة اذ اختلف بعض المهاجرين والانصار على الغنائم وانتهز عبد الله رئيس المنافقين فرصة هذا الخلاف فزاده اواراً ونفث من احقاده ما شاء حتى ندد بالنبي نفسه . فغضب لذلك عمر وطلب الى النبي ان يقتله. ولكن النبي الحكيم ، النبي السياسي القدير ، النبي العارف بطبائع النفوس ، ابى ذلك قائلاً : كيف يا عمر ؟ اذا تحدث الناس وقالوا ان محمداً يقتل اصحابه ؟

وحين بلغ الخبر ولده التقي الورع والمؤمن الصادق ، جاء الى النبي قائلاً : فوالله يا رسول الله ما عرف الناس ولداً ابرّ بابيه مني واخشى ان قتله احد سواي ان تثور بي ثورة الجاهلية فاقتله ، وحينئذ اقع في الهلاك فمرني احمل اليك رأسه . فاجابه النبي :ـ انا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

* * *

هذا صفوان يحمل على راحلته ام المؤمنين عائشة ليلتحق مسرعاً

بالجيش ، وها هم المسلمون ينظرون من كل صوب الى عائشة وهي على راحلة صفوان .

يسر هذا المنظر جداً رئيس المنافقين عبد الله فقد وجد وكراً آخر يمد لسانه منه وينفث سمومه بعد ان آلمه سد الوكر الاول والقضاء على فتنة الغنائم ، يرفع صوته امام المنافقين قائلاً : ماشأن عائشة وصفوان ؟ وكيف استطاعت ان تغادر هودجها .

وهكذا يتقدم صفوان الى النبي ويدع افراد الجيش ويقص عليهم الحادثة وكيف انه وجدها منكمشة في مكانها وأخذت عائشه تقص الى ابويها كيف انها ذهبت لبعض حاجتها فاضاعت عقدها ، فاخذت تبحث عنه طويلاً ، فاحتمل الناس هودجها وهم يظنون انها به لانها فتاة صغيرة ليس لها من ثقل .

هذه فتنة اشتعلت نارها ، وفتنة العرض عند العرب اشد من فتنة الحرب ، ولن يكون من باب التزيد في الحديث ان زعمت انها كادت تأتي على الدولة الاسلامية الفتية من قواعدها .

عادت عائشة الى المدينة وعاد الجيش وقد كثرت الالسن التي تلوك حادثتها واستطارت في كل مكان ، فمرضت واشتد بها المرض واستأذنت النبي ان تمرّض في بيت ابويها فاذن لها وكان يزورها متجهما مما زاد في المها .

فكر النبي في امر عائشة فاجتمع الى عليّ ابن عمه وذكر له امرها وكان النبي جد مهتاج النفس مضطرب البال ، فاراد الامام علي ان يسرّي عنه اولاً بقوله : النساء كثير ، كما اراد ان يطمئنه على طهر عائشة فاشار اليه ان يسأل جاريتها عن ذلك .

فسأل النبي الجارية عن حالها فقالت : والله ما اعلم الا خيراً ،

ونفت عنها قالة السوء .

* * *

وفي اليوم التالي ، ذهب النبي الى بيت الصدّيق واراد ان يفهم منها كل شيء فقال لها : ان كنت المت بشيء فتوبي الى الله ، فان الله تواب رحيم .

فاجابته : والله لا اتوب الى الله مما ذكرت ابداً ! ! ولكنني اقول كما قال ابو يوسف : « صبر جميل والله المستعان على ما يصفون » .

وهنا اخذ النبي برحاء الوحي واحمر وجهه واخذ العرق يتصبب من وجهه كأنه حب الجمان . وقد خفق قلب ابويها واضطربا اضطراباً شديدا واصفرا كالمغيب وخشيا ان تكون قد المت بشيء وان ينزل في ذلك وحي .

ولكن حين سرّي عن النبي وهو مشرق الوجه ضاحك الثغر هدآ ا وهو يقول لعائشة : ابشري فان الله برّأك .

وانتهى النبي الى المسجد والصدّيق في صحبته واخذ يتلو هذه الآيات على الناس :

« ان الذين جاؤوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره له عذاب عظيم » .

« لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين » .

« لولا جاؤا عليه باربعة شهداء ، فاذا لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون » .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما

افضتم فيه عذاب عظيم ، اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم » .

* * *

وهكذا نجد ان الشريعة الاسلامية تحافظ على الروح الخلقي كل الحفظ وتفرض احترام كرامة الاعراض ، من ذلك طلب النبي الى الذين اذاعوا الافك على الجماهير في كل مكان ، ان يأتوا باربعة من الشهداء ، وحين لم يأتوا بالشهداء وانما كانوا يرجمون بالظن جلدهم جلد القذف . ألا ان زوجة رسول الله ، محال ان يشتبه بها ! !



الفصل العاشر

ان ما يمتاز به الرجال عمق الفكرة واصابتها الهدف واشتمالها على الحيوية الخالدة التي تجعلها عملية بين الاعمال . وهكذا كان النبي عظيم الفكرة عميقها ذوي الحيوية الى حد بعيد جداً وعملياً الى اقصى ما عرف عن عظماء الرجال .

وليس من الميسور لغير محمد مهما اوتي من فكرة ان يسيطر على مجتمعه المتفرق قبائل قبائل . وبالاحرى الاعراب المنتشرين في طول الجزيرة وعرضها . على انه فكر طويلاً ، وادرك ان سلطته لن تأخذ مكانتها في جزيرة العرب ، ومكة تشتمل على اعداء مناوئين هم في عرف المجتمع الجاهلي اهل حرم الله ، وسدنة بيته ، وحراس الآلهة وموئل الحجيج

فكرة القضاء على سلطان قريش ، الاعداء القدماء الالداء ، الذين اخرجوه وصحبه من موطنه وكادوا له مرارا وحاولوا اغتياله وجهزوا الجيوش للقضاء عليه حتى في دار هجرته لم تكن لتشغل النبي وحده بل كانت تتراوح ايضاً في انفس المهاجرين ، فقد نالهم من اذى قريش وفتنتهم والعبث بهم الشيء الكثير .

اذن فالجميع كانوا على اهبة الاستعداد يرغبون كل الرغبة في فتح مكة .

* * *

كان مسجد المدينة يعج بالمصلين كعادته في غبشة الفجر وكان النبي كأنه الكوكب المضيء وقد استدار تجاه المصلين وجهاً لوجه ، وعرف المصلون انه يريد ان يتحدث اليهم بعض الحديث او يقص عليهم رؤيا ، فقد اعتاد ذلك احياناً

وبعد ايام كان النبي واصحابه قد ساقوا الهدي امامهم واحرموا للحج وتجردوا من كل سلاح اعلاناً لرغبة السلم ولم يحتفظوا الا بالسيوف

في اغمادها ، وكانت قلوب المهاجرين تخفق فرحاً لانهم يحسون في انفسهم جاذبية الى مكة وحناناً بجانب الحنان الديني واداء فريضة الحج ، هي ارض الميلاد ، فيها انحلت التمائم وهم صبية ، وكم مرحوا في دروبها وتسلقوا الى قمم جبالها .

هم الآن يسيرون اليها ، كما حدثهم النبي في رؤياه وكيف لا تصدق رؤيا النبي ورؤيا الانبياء وحي من السماء ؟

ما بال قريش جن جنونها وهاجت هياج الأعاصير الهوجاء ما بالها ؟ ! . انها تريد ان تصد النبي واصحابه عن اداء فريضة الحج .

آذنهم محمد انه لا يريد حربا ، انه جاء حاجاً هو واصحابه ولكن قريش التي مرنت على الكذب والافك ونقض العهود ، كيف تصدق ان محمدا لم يقصد سوى الحج وهم الذين اخرجوه من موطنه وكادوا له وحاولوا اغتياله وقاتلوه في دار هجرته ؟ ! ..

كل هذه الاعتبارات جعلت قريش تبعث روادها يأتون اليها بالخبر اليقين ، ارسلت عروة بن مسعود ....

يا قوم ، اني ذهبت الى الممالك ، شاهدت قيصر في دولته وكسرى تحت تاجه ، وفوق عرشه ، وابصرت النجاشي في قصره فوالله ما وجدت من له في قومه وبين رجاله من الحرمة والاكبار والحب ما رأيته في نفوس اصحاب محمد .

الماء الماء الذي يتوضأ به ، تتدافع الى قطرانه الايدي والسعيد من يصل الى قطرة منه يمسح بها محياه . لا يسقط منه ظفر ولا تنسل شعرة الا وكنزت في نفوس اولئك الرجال . اترون ان قوماً هذا شأنهم مع محمد ، اتاركوه لكم ؟ !

لم تكترث قريش الى حديث عروة ولم تستمسك بعراه ، بل

بعثت سواه الى محمد . وحين رأى النبي رسلها تتوالى والامر يزداد تعقدا ، رأى ان يبعث اليهم عمر الباسل ولكنه اعتذر لشدته ولان له بين القرشيين ثارات .

فاختار النبي صهره عثمان الاموي . ها هي قريش ترضى عن عثمان وتفسح له المجال ليطوف حول البيت ولكنه ابى قائلاً : « ما كان لي ان اطوف ورسول الله خارج مكة » .

وهكذا طال الجدال بين قريش وعثمان حتى ترامت الانباء ان قريشاً قتلته وهنا جمع النبي اصحابه تحت الشجرة وذكر لهم ما ترامت اليه الاخبار ، واخذ عليهم « بيعة الرضوان » التي مجدها الله في القرآن بقوله : « ان الذين يبايعونك تحت الشجرة انما يبايعون الله ، يد الله فوق ايديهم » بيعة على الموت في سبيل الحق ، بيعة على الموت في ازهاق الباطل ، بيعة لا يراد منها العدوان ولكن الانتصاف .

سمعت قريش بحديث البيعة ، فسقط في يدها وحالا اطلقت عثمان وعلى اثره ارسلت سهيل بن عمرو مفلوضاً .

حلفت قريش ان لا يدخل محمد واصحابه مكة هذا العام ، وهي لا تريد ان تجرح عزتها وكرامتها وان يتسامع العرب ان محمداً دخل مكة عنوة ! !

والنبي السياسي الحكيم لم يصر ايضاً على حجه في هذا العام . هي رؤيا رآها ، ورؤى الانبياء وان كانت حقاً فليس من الضروري ان لا تتحقق بعد عام .

غاظ المسلمين كثيرا جنوح النبي للسلم واذعانه لقريش وكان بودهم ان يبطشوا بقريش وان يدخلوا مكة عنوة . ولكنهم لم يفطنوا الى ما فطن اليه النبي من اثر المدنة ، وأعطاه المجال للقبائل جميعاً

ان تنظر الى مساواة سلطانه بسلطان قريش لان توقيع المعاهدة من الفريقين يدل على ذلك ، واعطائهم المجال لينظروا في تعاليم القرآن ويتدارسوه ، فليس الآن بين قريش ومحمد من حرب او عداوة .

* * *

١ – ان المسلمين والقرشيين تهادنا عشر سنين .
٢ – انه من اتى محمداً من قريش رده اليهم .
٣ – ومن يرتد من المسلمين لا ترجعه قريش .
٤ – والقبائل احرار فمن احب ان يحالف محمداً ومن احب ان يحالف قريشاً فله ذلك .
٥ – يعدل المسلمون عن اداء فريضة الحج هذا العام ويحجون في العام القابل بشرط ان يظلوا في مكة ثلاثة ايام وليس معهم من السلاح سوى السيوف في الاغماد .

* * *

انك اذا نظرت في نصوص هذه المعاهدة وفي الطريقة التي تمت بها ، تكبر العبقرية الموهوبة التي اختص الله بها نبيه .
لم يحفل النبي لعصبية سهيل حين ابى ان يكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

ولم يرض الا بالكلمة المتعارفة لديهم : « باسمك اللهم » .
كما ابى ان يكتب كلمة رسول الله في هذه الفقرة :

« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو »

وان علياً الحبيب الى رسول الله تخوف ان يمد يده ماسحاً كلمة « رسول الله » ولكن النبي بادره فمحاها .

ولم يكد ينتهي النبي وسهيل من التوقيع على صك المعاهدة ، حتى اقبل ابو جندل يعلن اسلامه ويستنجد برسول الله ، ولكن النبي يقول له امام سهيل : عد يا ابا جندل فاننا اعطينا القوم عهودنا ومواثيقنا ، فاصبر انت ومن معك من المستضعفين ، فأخذ الزهو سهيل بن عمرو ورأى نفسه كبيراً بتوقيع هذه المعاهدة بانه ربح معركة المفاوضات وخرج منها منتصراً .

ولم يفطن سهيل الى عمق هذه المعاهدة ولا المسلمون ايضاً ، فقد خالوها اهانة لهم وغلاً ثقيلاً شد الى اعناقهم ، لم يفطن اليه الا النبي وحده .

ادرك ان جزيرة العرب التي كانت ترى ان محمداً خرج من مكة طريداً وان قريش لا تعترف به ، وانه بالنظر اليها يعد صابئاً ، ادرك انه تساوى واياها في مضمار السياسة وانه اصبح كفؤاً لها يشاطرها سلطان جزيرة العرب والنفوذ على القبائل وانها اعترفت بذلك من حيث لا تدري .

حقاً ان في هذه المعاهدة لانتصاراً لمحمد وفتحاً فوق كل انتصار وفتحاً دون سهيل وقومه .

الا ان محمداً هو الذي خرج رابحاً من معركة المفاوضات ولكن ربحها دون ريب باذن الله .

جرت هذه المعاهدة بين قريش ومحمد ، والمسلمون حيارى ينظرون الى قريش والغيظ يأكل من نفوسهم ، كم ودوا لو حكموا السيف في رقاب قريش ، كم ودوا لو انتصفوا لانفسهم ودخلوا طائفين ساعين على جثث قريش .

وما كادت تنتهي المفاوضة ويوقع الفريقان ويرون كيف ردّ

النبي ابا جندل المسلم الخارج عن قريش ، حتى هاجت بهم انفسهم وكادوا يظهرون جزعهم لولا مكانة رسول الله ولولا جلال النبوة .

على ان النبي نفسه حين امرهم بحل الاحرام وحلق رؤوسهم تثاقلوا ولم يلبوا .

ولكنه حل احرامه وطفق يحلق هادئاً مطمئناً سعيداً بما تم من شأن المعاهدة . فما كادوا يرون النبي يفعل ذلك وهو على اشد ما تكون الطمأنينة ، حتى تسابقوا الى التحلل من الاحرام وازدحموا لحلق رؤوسهم . وانهم لكذلك ، فاذا ببشرى الفتح والنصر المبين تأتي من الله – « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .

* * *

في خيبر من جزيرة العرب اليهود ، خيبر التي لا تبعد عن المدينة كثيراً . واليهود الاعداء الالداء لمحمد الذين قابلوا كل احسانه بالكفران وناوؤه من اول يوم ، وخيبر التي فتحت راحتيها لاستقبال بني النضير وأثارت معها ثائرة الاحزاب وجمعت جزيرة العرب لحرب محمد ، خيبر التي لا يمكن ان يتمكن محمد من جمع حكمة العرب واسلامهم وهي ذات قوة ومال وقدرة على الكيد والدهاء واثارة الاعداء .

خيبر التي اخذت تعد العدة لاخذ الثأر واثارة حرب شعواء ، تحول به ما بين محمد ودعوته .

واذا كان النبي اليقظ لم يغفل عن قريش ومؤامراتها فليس من المعقول ان يتجاهل امر خيبر .

ها هو ذا انتهى من شأن مكة وكفلت له المعاهدة سكون قريش . اذن ايها الجنود ، ايها المحاربون خذوا طريقكم الى خيبر .!

بات حصن الصعب بن معاذ والمسلمون يحاصرونه اشد الحصار . لم يعبأوا بجنوده ولا بشموخ اسواره ولا بكثرة مؤنه وذخائره .
نعم يئس بعض المسلمين حين نفذت ازوادهم وضجروا من طول المقام ، ولكن لم تكد تمر ايام بعد ذلك حتى فتح الحصن ونعم المسلمون بما فيه من المؤن واستقوا بما فيه من العدد ، وانحازوا الى اشد حصون خيبر متانة وقوة ، حصن ناعم ، الخشن ، الشديد الشكيمة ، القوي الوطأة .
واخذت الايام تمر والمسلمون في كل يوم يحاولون فتحه ولكنهم يرتدون عنه منخذلين . وفي صبيحة يوم اعطى النبي رايته ابا بكر وطلب اليه ان يجدّ في فتحه .
وجاهد الصديق كل الجهاد ، جاهد ما وسعه الجهاد ولكن الحصن استعصى عليه وشمخ واستكبر ، فآب الصديق مساءً والحصن يشير اليه .
وفي بكرة اليوم الثاني اعطى رايته عمر بن الخطاب ، وطلب اليه ان لا يدّخر وسعاً في فتحه .
ذهب الفاروق وقد عقد ما بين حاجبيه سخطاً على اليهود وحصنهم ، وشمّر عن ساعديه ، واستصرخ صرخاته في الجنود ، واستمر يجالد ويغالب طوال اليوم ، والحصن جاثم في مجثمه كأنه اسد رابض شرع انيابه ، وفغر فاه ، لا يكاد يقترب منه احد الا فتك به والتوى عليه . ومساء عاد عمر وجنوده ، والحصن يمد لسانه .
فحين شاهد النبي عمر ، قال : غداً اعطي الراية لفتى يحبه الله ورسوله ، ليس بفرّار يفتح الله عليه الحصن .
اضطجع المجاهدون في مضاربهم ، وكل يحلم بفتح الحصن على يديه ،

وكل يأمل ان يكون هو ذلك الرجل الذي يحبه الله ورسوله .

وما انتهى النبي من صلاة الفجر الا وكانت الاعناق متطاولة اليه والعيون متجهة صوبه ينتظرون من سيجعل الله على يديه فتح الحصن

ـ علي ! علي !

ينظر المسلمون جميعاً شطر ابي الحسن ، وينتصب علي ويتجه صوب النبي وقد وضع يده على عينيه لشدة وطأة الرمد .

يعطيه الراية ويبشره بالفتح ويأمره بالذهاب وعلي يستمع ،ولما تزل يده على عينيه . ثم طلب اليه ان يدنو منه فمسح له على عينيه ، فارتد بصيراً كأحسن ما كانت عيناه جلاءً وصفاءً فيستطير ابوالحسن « اسد الله » فرحاً ويمتطي صهوة جواده ....

ما بال الحصن يبدو في هذا اليوم متطامناً منخذلاً قد انكمش على نفسه فَرَقاً ؟ ؟ ! !

لقد تراءى جناحا النسر يسدان فضاء الحصن بالشكيمة والبأس ، ويملأنه رعباً ويرجانه رجة عنيفة كادت تكبه على قرنيه ، رجة زلزلته زلزالاً .

اقترب البطل علي وملء ثوبه العزيمة ومعجزة النبوة وبشرى الفتح ، اقترب بهديره وزئيره وجنوده من خلفه والراية ترفرف في يديه ، راية النصر المؤكد والفتح المبين .

في هذا اليوم تدرع مرحب ما وسعته الدروع وتسربل بالحديد وامسك اسلط سيوفه واطول رماحه . وخرج معتزاً ببطولته وقوته وجبروته .

اين انت يا مرحب من عمرو بن ود العامري اما بلغك انه جندل على الثرى ؟ اما وافتك الانباء ان الثرى ارتوى من دمه ؟ !

هاج مرحب ، وفي نفسه أنه زلزل الدنيا بهياجه، وصرخ ، وفي عقيدته انه القى عليا على الارض ، ورفع سيفه وهوى به وهو لا يشك انه اصاب الهدف ومادرى انه القي شطرين على الارض ، وان اشلاءه مرت عليها الفرسان واجتازتها الى الحصن .

ها هو ذا الحصن ترفرف فيه راية النبي ، تملأه طمأنينة الاسلام وروح الحق والعدل وتسمع اركانه كلمة التكبير :

الله اكبر ! الله اكبر !

* * *

تم فتح خيبر وانقضى الامر ، وأمن النبي على دولته بأس اليهود ومؤامراتهم فقد قضى عليهم سياسياً .

وظن المسلمون ، بل اعتقدوا ، ان النبي سيخرجهم من خيبر كما اخرج اخوانهم بالأمس من يثرب ، ولكن العبقرية السياسية وروح العمار والنهضة والتجديد التي تملأ نفس النبي ازالت من انفس اصحابه كل ما ظنوا واعتقدوا !

ها هو ذا يبقي خيبر لأهلها ، يبقيها لأنها مصدر حاصلات اقتصادية لا يستهان بها في جزيرة العرب ، يبقيها على شرط ان يدفع المزارعون شطر حاصلاتهم .

ولا ريب ان هذه المعاملة دلتنا على ان محمداً يبني ولا يهدم ، ويعمر ولا يخرب ، دلتنا ان محمداً اكبر مشرع ، واكبر مجدد ، واكبر بانٍ للنهضة الانسانية العامة .

* * *

وفي خيبر كان للنبي زواجه من صفية بنت كنانة بن الربيع زعيمها وفي زواجه منها ، تأليف لأهلها اذ اصبحوا اصهاراً لرسول الله .

وفي خيبر ايضاً دست السم زينب بنت الحارث في ذراع وقدمته في شاة ضيافة للنبي فحين علم النبي بما صنعت وحاول عليّ ان يقتلها سألها النبي : ما حملك على صنع هذا . — قلت ان كنت نبياً فسيعصمك الله وان كنت ملكا ثأرت لقومي .

فسامحها النبي واطلق سراحها .

* * *

رأى جيش المسلمين وهم عائدون من فتح خيبر جماعة تتجه صوب المدينة يقدمهم بعض الفرسان ، فجدّ النبي صوب اولئك القوم وجدّ اولئك القوم صوب النبي ، وما التقيا وجهاً لوجه حتى وقعت عينا جعفر على النبي ، فسارع اليه يحتضنه ويبكي من شدة الفرح ، فاحتضنه النبي واشتم فيه رائحة عمه الشفوق ابي طالب وابن عمه عليّ وهو يقول :

لا ادري باي النصرين انا مغتبط ، ابفتح خيبر ام بعودتك ياجعفر ؟!

اجل ، سر النبي بعودة جعفر والمسلمين الذين كانوا معه في الحبشة وآلمه سوء حالهم فاقسم لهم شطراً من غنائم خيبر ترفيهاً لعيشهم واغاثة لهم ، كما اراد ان يواسي ام حبيبة بنت ابي سفيان ، اذ توفي عنها زوجها في الحبشة .

وفي الزواج من ام حبيبة من حنكة السياسة وعمق الفكر ، ومرضاة ابي سفيان زعيم قريش وقائد حروبها والعدو اللدود لمحمد الكثير الكثير .

فان ابا سفيان بعدها طفئت جذوة حدته وشعلة غضبه واحقاده واصبح قريب المأمل ان يكون في يوم من المسلمين .

هذه سياسة محمد وتدبيره اتاه الله نبيه وخصه به .

الفصل الحادي عشر

لم يكن محمد رسولاً لقومه وجزيرة العرب فحسب ، وانما هو رسول عالمي ارسل الى الانسانية جمعاء . « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » .

فكان لا بد له ان يتأتى بكل الاسباب السياسية والدعاية لكي يؤدي واجب الرسالة العامة .

ان الدولة الاسلامية الأولى التي بنى قواعدها بيده وشيد اركانها لا تزال وليدة في المهد ، لم تبلغ بعد رتبة الدول الكبرى المجاورة لجزيرة العرب . وليس في مقدورها ان تقاوم تلك الدول لذى اهبتها لاكتساح جزيرة العرب والقضاء عليها .

ولكن . . . .

الرسالة ! الرسالة ! هي واجب آلهي مقدس ، لا بد من التبليغ مهما يكن الامر ومهما تكن الظروف والمناسبات .

هكذا مهد النبي للدعاية الاسلامية ولتأسيس دولته بفكرة ارسال السفراء الى هاتيك الدول واعلان الدعوة الاسلامية اليهم . وهي فكرة سياسية دبلوماسية خطيرة لها شأنها وآثارها في التاريخ الاسلامي .

واليك جملة انباء السفراء والرسائل التي كانوا يحملونها الى رؤساء الدول والملوك فيما يأتي من صفحات .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس

« سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا آله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله، ادعوك بدعاية الله فاني انا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . اسلم تسلم فان ابيت فانما عليك اثم المجوس » .

حمل هذه الرسالة الخطيرة السفير الاول عبد الله بن حذافة الى كسرى ابرويز الملك الثالث والعشرين اشهر ملوك الاسرة الساسانية وهي رسالة تشتمل على طرح عبادة المخلوقات واشراكها في عبادة الله الخالق او اتخاذها آلهة، كما تشتمل على طلب دخوله وقومه في الاسلام . والنبي لم يجعل المسؤولية في عدم دخول الشعب في الاسلام تقع على عاتق الشعب نفسه وانما تقع على عاتق كسرى ذاته حيث الملك لم يكن ديموقراطيا وانما كان استبداديا ليس للشعب من كلمة تجاه ارادة الفرد المطلقة . وانك تجد ايضاً ظاهرة جديدة لم تعرف بعد في تلك الازمان السحيقة ، وهي طرح الالقاب الكاذبة التي يفرضها الملوك لانفسهم ويوجبونها على شعوبهم ترفعاً بانفسهم واستكباراً ان يكونوا كبقية البشر .

« من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس »

لم يعتد كسرى ان تصل الى اذنيه هذه الكلمة الا وهي ملففه في افواف الحرير الناعم ، ملك الملوك ، سيد العالم ، وهكذا .

من اجل ذلك لم يكد يسمع فاتحة الرسالة «من محمد رسول الله» حتى جن جنونه ، كيف هذا الرجل يقدم اسمه عليه ؟ وبعد ان سمع

اسمه مجرداً من كل الالقاب الـكاذبة اختطف الرسالة بسخط وغضب ومزقها وطرحها على الارض وصرخ صرخـاتـه المزعجة في القصر وامر حالا ان يرسل الى عامله بازان في اليمن ان يؤمر بان يبعث جيشاً الى هذا الاعرابي الدعي ويأتوا اليه برأسه .

كان النبي يتحدث الى الرسولين اللذين انفذهمـا بازان : « ان كسرى ابرويز قد عدا عليه ولده شيرويه فقتله انتقاماً من الله » وقد ملأت انوار النبوة نفس هذين الرسولين فاسلما وحينئذ جعلهم النبي بما اوتي من تأييد الهي، ونظر بعيد ، رسولين داعيين له تجاه بازان.

وما وصل الرسولان الى اليمن حتى جاءت الانباء تؤيد الوحي معلنة قتل ابرويز بيد ولده شيرويه كما اخبر رسول الله . وشيرويه هذا لم يكن كأبيه فظاً غليظاً وانما كان رفيقاً ليناً ، امر بازان ان يترفق الى النبي وان يحسن معاملته ما استطاع الى ذلك سبيلاً فاسلم بازان وشعبه واصبح مرتبطاً بالنبي .

* * *

وسفراء النبي كانوا من الرجال السياسين، ذوي الحنكة والخبرة بشؤون الدول ، الذين مرّوا بالبلاد في متاجرهم ، وعرفوا الناس . وكما كان النبي يختار للدعاية والتبشير الرجال الذين سهر على تعليمهم الدين والكتـاب ، كذلك كان يختار سفراءه من خيرة الرجـال السياسين .

هذا دحية بن خليفة الكلبي المعروف بذكائـه وفطنته وحسن سياسته وجماله الرائع ، اختاره النبي ليكون سفيره الى امبراطور الروم هرقل .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم

« سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد ، فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين : يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » .

انك تجد في هذه الرسالة ايضاً القاء المسؤولية ، فيما اذا حيل بين الشعب « الاريسيين » وبين الروحية الاسلامية التي ارادها الله لاسعاد البشرية ، انما تقع على عاتق قيصر وحده ، والدعوة الى الرجوع الى عبادة الله المشتركة بين الجميع ، وطرح تأليه سواه من البشر.

وهرقل لم يكن كقيصر في غلظته وجفائه وحماقته ، بل انعم في الرسالة طويلاً ولم يقل شيئاً مكروهاً بل اكرم السفير واحسن لقياه ومنصرفه .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط

« سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد ، فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم ، يؤتك الله اجرك مرتين ، وان توليت فانما عليك اثم القبط ، ويا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم إن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » .

وهذا هو السفير الثالث حاطب بن ابي بلتعة الذي اختاره النبي

لمفاوضة المقوقس عظيم القبط .

والمقوقس لم يكن راضياً عن حكم الرومـان لمصر ، وكم كان يتمنى ان يجد خلاصاً من سلطتهم ،من اجل ذلك اكرم وفـادة السفير واثنى على النبي وبعث اليه بالهدايا والطرف وجاريتين كريمتين مارية القبطية التي ولدت ابراهيم ابن النبي الذي لم ينعم بـه طويـلًا ، والاخرى التي زوّجها من شاعره حسان بن ثابت .

وقد اكتسب النبي بتزوجه من مارية القبطية ، ودّ المصريين والقربى اليهم .

* * *

بسم الله الرّحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى النجاشي عظيم الحبشة سلام

« امـا بعد ، فـاني احمـد اليك الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، واشهد ان عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسي من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، واني ادعوك الى الله وحده لاشريك له والموالات على طاعته ، وان تتبعني وتوقن بالذي جاءني فاني رسول الله واني ادعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى »

هذا هو السفير الرابع عمرو بن امية الضمري يتقدم الى النجاشي ملك الحبشة حاملًا رسالة النبي اليه . وما كاد النجاشي يشاهد الرسالة حتى نزل عن عرشه ، وجلس الى الارض اجلالاً واحتراماً لها وبعد تلاوتها اعلن اسلامه .

* * *

بسم الله الرّحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى الحارث بن ابي شمر

« سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدّق ، واني ادعوك ان تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك » . —

وهذا هو السفير الخامس يحمل الرسالة الى ملك الشام العربي من قبل الرومان . انك تجد في هذه الرسالة تهديداً بخلعه عن الملك ان لم يستجب ولكن هذا الرجل الذي كان صنيعة الرومان سخط وهدد اظهاراً لساداته انـه موالٍ لهم . وانذر انه سيبعث الى محمد بجيش يقاتله .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى هوذة بن علي

« سلام على من اتبع الهـدى واعلم ان ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك » .

هذه هي الرسالة الثانية الى ملك عربي يحملهـا سليط بن عمرو العامري وفيها اعلانه بان الامة العربية واحدة وان الاسلام سيعمها فان اسلم ابقاه على ملكه .

فاستشاط هوذة غضباً وهزيء بالدين الجديد وتنكر له . وقيل بل اجاز الرسول واحسن وفادته .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى المنذر بن سلوى

« اسلم تسلم ، واني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو » . . . .

قدم هذه الرسالة السفير السابع الى ملك البحرين فسرّ كثيراً بها واعتنق الاسلام وامر شعبه بذلك فمنهم من اسلم ومنهم من ظل على يهوديته ومجوسيته .

وقـد ارسل الى النبي يستنبئه ما يفعل بهؤلاء الذين لم يسلموا من اليهود والمجوس ، فكتب اليه النبي ان يدعهم وما اختاروا لانفسهم من دين وان يقبل منهم الجزية .

* * *

في السنة السابعة للهجرة ، المقابلة لعام ٦٢٨ م كان انفاذ السفراء الى دول العالم في عصر النبي . وكان هذا الانفاذ وثباً بالرسالة من جزيرة العرب الى امم الارض جميعاً .

وفي هذا يكون النبي قد وقف بدولته الفتية الى جانب اعظم دول الارض سلطاناً واوسعها ملكاً، الى جانب دولتي فارس والروم

* * *

جاءت اشهر الحج ترفرف بافتن الامـاني واسحر الاطياف الى نفوس المهاجرين فقد تركوا هنالك ملاعب الصبا وذكريات الشباب واحلام الفتوة ، تركوا هناك منـازلهم ودورهم واهلهم ، فما اشد شوقهم الى مكة .

وهؤلاء الانصار الذين حرموا اداء الحج مـدة طويلة لا لشيء سوى انهم آمنوا بالاسلام، هؤلاء سيحجون في هذه المرة وسيلبون نداء الله ، ولكنهم لا ينـادون ولا يلبون سوى نداء الله وحده .
لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك ! وان النعمة والحمد لك وحدك !

ثم انك تجـد اثر الحيطة العسكرية تتجلى في الكتيبة المسلحة التي امرها ان لا تتجاوز حدود الحرم خشية غدر قريش فيما لو فعلت ذلك . واما النبي واصحابه فقد ذهبوا الى مكة محرمين ، ليس لهم من السلاح سوى السيوف في اغمادها كما جاء في نصوص المعاهدة .

ان الدارس للمقاصد التي جعلت النبي يعدد زوجاته يجد فيهـا

عمقاً كبيراً وسموا. فاحياناً يكون سياسياً ، واحيانا يكون حربيا واحيانا يكون دفعا لشر ،واحيانا يكون تألفا لقوم او مكافأة على خدمة او ربطا لاواصر القربى بينه وبين كبار اصحابه .

وهذا هو الغرض العسكري يتجلى في زواجه من ميمونة خالة خالد بن الوليد المرأة المسنة التي لم يكن لها شيء من مغريات الزواج سوى قربها من خالد .

اراد النبي ان يتألف القائد البطل خالد بن الوليد الذي اذاق المسلمين المرّ في وقعة احد ، اراد ان يوفقه الى هداية الله وان يجعله سيفا له مجاهداً في سبيله .

وفعلاً لم يمر سوى زمن يسير ، حتى جاء خالد النبي مسلما وتبعه عمرو بن العاص فاتح مصر وداهية سواس الاسلام .

* * *

قد رأيت ما فعله الحارث بن ابي شمر صنيعة الرومان وملك الشام وكيف قاوم الدعوة الاسلامية وهددها بانزال جيش لهدمها في مستقرها . وها هو رسول الله يعاود اليه المفاوضين فيرسل اليه سفيراً ،ولكن لم تكد ترى جنود الحارث المفاوض الجديد قريباً من بصرى حتى هجموا عليه بسيوفهم ، وتركوه على الارض اشلاء .

عجيب جداً ، حادثتان مروعتان لا تنذران بخير من جانب قوم من العرب يقفون في وجه باعث نهضتهم وجامع كلمتهم هذا الموقف الشاذ الخشن الذي لم يقفه امبراطور الرومان نفسه . الا ان النبي اليقظ لم يدع للحارث فرصة ارسال جيشه الى المدينة بل بادره بارسال جيش عربي جديد من صميم الجزيرة يبلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل . وقد جعل القيادة لزيد بن حارثة فان قتل فالقائد

جعفر بن ابي طالب وان قتل فالقائد عبد الله بن رواحة . ثم ترك الامر للمسلمين يختارون من يريدون .

لم يكد زيد بن حارثة يخيم بجيشه الصغير قريباً من مؤتة ويعسكر هناك حتى شاهد جيشاً عرمرماً يسد الفضاء ، من العرب والروم يبلغ المئة الف مقاتل . ولم يكن في حسبانه ان العرب والروم قد اعدوا كل هذا الجيش الكبير . ولكن ، ادرك المسلمون معجزة رسول الله وانه ما ارسلهم الا لصد هذا الجيش .

درس زيد واركان حربه من كبار القواد مقدرات العدو العسكرية ، فوجدوا انفسهم غير قادرين على مباشرة حرب مع هذا الجيش قبل ان يأتيهم المدد ، فقرروا اخبار رسول الله .

ولكن زيداً اخذته الحماسة الاسلامية واشتعل في قلبه الايمان ورأى من الصغار ان يقف متخاذلاً امام الجيش الكبير فألقى كلمته على المسلمين ، التي الهبتهم حماسةً : « يا قوم ، والله ان التي تكرهون من الشهادة لهي التي خرجتم تطلبون . وما نقاتل الناس بكثرة عَدد او عُدد بل بالدين الذي اراده الله للناس جميعاً ، فهلموا الى الجهاد فان التي تنتظرنا احدى الحسنيين : الشهادة او الغلبة والنصر .

اشتد اوار المعركة . . . واظهر المسلمون القلائل من البسالة والتضحية والجرأة على العدو ما اظهروا ، وهذا قائدهم زيد بن حارثة يقدمهم والراية في شماله والسيف مسلط في يمينه وهو ينادي : الله اكبر ! الله اكبر ! وقد تكاثف عليه ابطال العدو من الروم والعرب يريدون الفتك به والقضاء عليه .

وما سقطت عليه الضربات بعد ان اثخن الجراح في العدو وكاد يسقط عن جواده قتيلاً حتي هجم جعفر بن ابي طالب البطل المغوار وتلقى الراية قبل ان تصل على الارض بيده وقاد الجيش بحنكة وقوة وطفق يقاتل العدو ويجالده والابطال تقصده وتريد القضاء عليه وهو يجالد ويغالب ويتعمق الجيش حتى انقضت على يده التي يحمل بها الراية ضربة سيف اطارتها ولكنه قبل ان تهوي الرايةعلى الارض تلقاها باليد الاخرى وهو يزمجر زمجرة الاسد الهصور ، ولكن اليد الاخرى ايضاً بترت بضربة سيف فاستطرد جواده واحتضن الراية بكلتا ذراعية وضمها الى صدره وهو غاضب حنق ، والقتال على اشد ما يكون هولا ، والغبار قد سد افاق السماء . وما كاد يهوي جعفر قتيلاً حتى تقدم عبد الله بن رواحة وما دام طويلاً حيال كثرة العدو حتى سقط في الميدان .

وهنا سارع المسلمون فاختاروا البطل العظيم خالد بن الوليد . فكرّ على العدو وتناول الراية واخذ يصدر اوامره في تنظيم الجيش ومتابعة المعركة حتى ارخى الظلام سدوله .

لم يكن خالد بالقائد المشهور ولكنه كان على جرأته وبطولته النادرة كبير الحنكة ، واسع الدربة العسكرية ، قديراً على اكتساب المعارك ، يعطي لكل حالة ظروفها المناسبة منتزعاً النصر من بين مخالب العدو . من اجل ذلك قضى الليل وهو يضع الخطط الاولية للانتصار المقبل وقد اجرى مناوراته العسكرية ليخيل للعدو ان مدداً من اعماق الجزيرة قد وافى اليه كتائب كتائب ليلاً ، وطفق يضفي جبهة القتال ، وما كاد الفجر يلوح حتى رأى العدو نفسه حيال جيش جديد مترامي الاطراف في تنظيم محكم دقيق .

وهكذا بدأت المعركة وخالد يقود الجيش بعبقريته العسكرية الفائقة ودربته النادرة وقوته التي لا تقهر ،حتى القي الذعر في قلوب الاعداء وتخاذلت وتضاءلت جرأتهم على المسلمين واستكانوا امام خالد

وما كاد ينتهي النهار حتى وقف القتال وكان اكبر ما يتمناه العدو هو وقف القتال .

وهنا استطاع خالد ان ينسحب ويعود بالجيش سالماً الى المدينة بعد ان كاد ان يقضي عليه . وكل اثر خالد في هذه المعركة ان العدو لم ينل من الجيش الاسلامي ما قدره .

* * *

حزن رسول الله لموت القواد الثلاثة وبالاحرى موت ابن عمه جعفر الذي لم ينعم بالحياة طويلاً بعد ان ثاب من هجرته التي قضاها في الحبشة . حزن بمقدار ما سر بانتصار خالد وحسن قيادته وقدرته على انتشال الجيش الاسلامي من اشداق الموت ، اجل ، سر وقرت عيناه واطلق من هذا اليوم على بطل المعارك الاسلامية الكبرى المقبلة ، اسم « سيف الله » !

ما اجهل الذين لا يفكرون في الاسباب الدقيقة التي من اجلها يتزوج النبي بعد ان تجاوز الخمسين من عمره من كل اولئك النساء ، اما ينظرون الى هذا اليمن والنصر والى هذا التوفيق الذي استطاع ان يكسبه خالد للمسلمين ، اما بعد اسلام خالد بعد زواج النبي بخالته ميمونة من اسمى المقاصد الشريفة التي يريدها رسول الله لانتصار كلمة الله . الا ان محمداً الشاب قد قضي ريعان الفتوة وعنفوان العمر ، مكتفياً بزوجته العجوز حتى تخطت به الكهولة وهو ناعم راض لا يرجو الا بقاءها .

الفصل الثاني عشر

قد انحازت الى حلف النبي خزاعة لدى تسجيل صك معاهدة الحديبية ، كما انحازت بكر الى حلف قريش . ومرت الايام والاشهر وقريش وحلفاؤها مستمسكون بنصوص المعاهدة يحافظون جهدهم على الامن ، ولكن قريش التي لم تعتد الثبات على عهودها طويلاً والتي كان يغيظها ما تسمع من الانباء عن محمد ما كادت تسنح لها الفرصة لنقض العهد حتى انتهزتها .

هذه هي حليفتها بكر تضرب الخزاعيين حلفاء محمد وتفتك بنفر منهم ، وقريش تمدها بالسلاح والرجال . وارادت قريش ان تعبث بالنبي وان تعتذر عن نقضها للعهد فتحتفظ بعدم مساعدته لحلفائه في الوقت الذي ضربت الحلفاء ليروا عدم قيمة تلك المحالفة .

ولكن محمداً اليقظ ، الذي كان يؤلمه بقاء الوثنية في مكة مسيطرة على البيت الحرام ، ومشاعر الحج المقدسة ، والذي كان يود ان ترفرف راية الاسلام هناك ، لولا صك المعاهدة الذي يفرض عليه ترك معالم الحج السلطان قريش ، قد وجد هذه خير مناسبة ليعد العدة لفتح مكة واقتحام قريش .

ها هو ابو سفيان زعيم قريش وقائدها الاكبر في مواقعها يدخل المدينة وفي ظنه ان الناس سيهرعون الى استقباله وطلب رضاه ، يدخلها فلا يجد من يلتفت اليه او يحدثه حتى ابنته التي هي اعز الناس اليه واحبهم ، ما كادت تراه حتى طوت في حجرتها الفراش عنه فعجب وقال : اطويته رغبة به عني او رغبة بي عنه . فاجابته بحماسة : انه فراش رسول الله وانت رجل مشرك فلا ينبغي ان

تجلس عليه . فينصرف مخذولا ويزداد خذلاناً وذلة حين يرفض أبو بكر ان يتوسط له لدى النبي فيذهب الى علي فكان اشد نفوراً من ابي بكر فلم يجد بداً من ان يلقى محمداً بنفسه .

فيعتذر اليه ولكن النبي رفض اعتذاره فعاد الى قومه بخفي حنين يحمل على عاتقه الخيبة والذلة والانكسار وسؤ الحال .

* * *

تدافعت قريش حول ابي سفيان في دار الندوة بعد عودته من يثرب ليروا اثر مفاوضته لمحمد : وها هو ذا يقص عليهم ما شاهده واعتراه من الخذلان وينذرهم ويبالغ في انذارهم .وقد قلقت قريش لما سمعت وساء حالها وندمت لنقض المعاهدة ايما ندم .

عما قليل تتداعى آلهتها وتطرد من جوف الكعبة ، وتطرد من بيت الله ، اجل ، وعما قليل يمتلك محمد واصحابه مكة ويملأون سهولها وبطاحها وشعاب جبالها فلا يصبح لهم من امر او شأن .

ما هم صانعون تجاه كل ذلك ؟ ! ليس لهم سوى الاعتصام بالصبر وانتظار المفاجئات .

ها هم ذا يبعثون روادهم لتسقط الانباء وهو ذا يمر شهر واحد والقلق يملأ ليلهم ونهارهم والخوف يقطع من اوصالهم . وفي ليلة ظلماء يخرج ابو سفيان ومعه صديقاه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء ليطمئنوا على تخوم الحرم . ولكنهم ما كادوا يتجاوزون ارباض مكة ويشرفون على الصحراء الواسعة حتى تقع انظارهم على مضارب تسد الفضاء ونيران توقد هنا وهناك وحتى تغشاهم الجلبة والضوضاء ورغاء الاباعر وثغاء الشياة .

يلتفت ابو سفيان الى صديقه :

– ويحي ، ما ارى ؟ ما ارى ؟ لمن هذا المعسكر الضخم ؟ !
– هذه خزاعة جاءت تحارب .
– خزاعة ؟ ! خزاعة اخذل واذل ان يكون لها مثل هذا المعسكر الكبير .

ثم يتقدمون لاكتشاف امر هذا الجيش العرمرم رويداً رويداً ، واذا هم بالعباس عم النبي ينادي ابا سفيان وقد عرفه .
– ابا حنظلة ؟ ! اراك هنا ، ما جاء بك ؟
– ابا الفضل ؟ ! هو انت ؟ !
– اجل ! اجل ! يا ابا حنظلة هو انا ذا وقد اسلمت وهؤلاء جنود محمد . هلم لاجمعك بمحمد .

ويشير ابوسفيان الى صاحبيه بالعودة الى مكة لاخبارهم بما شاهدوا ويثب الى ظهر بغلة العباس فتطرد بهم بين الخيام والمضارب وما كاد عمر يشاهد ابا سفيان خلف العباس حتى صرخ به : قف يا عدوا الله والله لاقتلنك شر قتلة .

ولكن العباس اعلن انه دخل في جواره ويتابع سيره حتى يبلغ مقر النبي فيترجل هو وابو سفيان ويدخل به اليه وحوله جم غفير من كبار المهاجرين والانصار فيسلم عليه ويرد النبي تحيته وقد ذكر العباس لرسول الله انه اجاره فقبل جوار عمه وطلب اليه ان يريحه الليلة وان يأتي به صبحاً .

وانتهى النبي من صلاة الفجر وجلس الى اصحابه ، فاذا ابوسفيان بجانب العباس فيطلب اليه الايمان برسالته فيتلكأ .

وانك تعجب لسياسة النبي وقدرته الفائقة في تأثيره على كبار الرجال العظام . انه لا يأمر بقتل ابي سفيان كما كان يود اصحابه ،

اذ في قتله القاء لبذور العداء في نفوس اتباعه وآله . ولكنه يقترح على العباس ان يقف به في مضيق الوادي ليشاهد الجنود حين تمر .

– ما ارى ! ما ارى يا ابا الفضل ؟ لا احسب احداً في قدرتـه ان يقهر هؤلاء ، ارى ان ملك ابن اخيك اصبح ضخماً .

– لا، لا، ليس هو الملك ولكن هي النبوة يؤيدها الله بالمؤمنين ويؤآتيها النصر من عنده .

وانطلق ابو سفيان الى قريش يقص عليها ما شاهد .

* * *

عبّأ النبي لفتح مكة جيشه تعبئةً عسكرية دقيقة جعل الجيش اربع فرق وفرض على كل منها ان تدخل مكة من ثغر من ثغورها الاربعة ، كما فرض على الجيش ان يدخل هادئاً وادعاً لا يقاتل الا من قاتله فحسب .

دخلت الفرق الاربع مكة في آن واحد .

ولم يلاق الجيش اية مقاومة ما خلا الذين مرّ بهم خالد فقد رشقوه بنبالهم فقتلت اثنـان من المسلمين ، فهجم عليهم خالد وقتل منهم جماعة وفرّ الباقون .

ودخل محمد مكة محني الرأس خاشعاً لربه ، فرحاً بنصره ، غير مزهو ولا مستكبر ، عالماً ان كل ذلك اتاه من الله ، وما كاد يدخل المسجد الحرام ، حتى التف الناس حوله وجميع قريش وهي تريد ان تفهم ما هو صانع بها بعد طول عداوتها وشدة نقمتها وكثرة اذاها واستباحتهـا دماء المسلمين بجيوشها الجرارة مراراً ، فاذا هو ينظر اليها بحنان ويتلو عليهم هذه الآيات :

« انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك

وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

ثم يقول لهم : ما انا صانع بكم ؟ فيقولوا : اخ كريم وابن اخ كريم فيقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! !

انك لن تجد قائداً في العالم مهما بلغ من جلال الانسانية ،ورفعة العلم ، وذروة الخلق ، يخاطب اعداءه الذين استباحوا قتاله بعد ما استباحته قريش من دماء المسلمين يخاطبهم حين ظنوا انه القى عليهم قيود السلطة والجبروت وانهم اصبحوا اسرى بين يديه ، يخاطبهم منكراً انكم اسرى او مقيدين قائلاً :

اذهبوا فانتم الطلقاء ! ! ! ...

* * *

وقد اسلم قريش جميعاً وعمّ المسجد الحرام رنة الفرح والمسرة وتنادى الناس في كل مكان بلا اله الا الله .

* * *

ترامت الانباء الى ثقيف ومجاوريها من القبائل بما تم من فتح مكة واسلام قريش ، وادركوا انه لا بد وان يفاجئهم كما فاجأ قريش ، وقد كانوا شركاً في عداوة محمد وخصومته .

انهم يعدون العدة في الطائف وغيرها وقد استشاروا جميعاً دريد بن الصمة المشهور لديهم على كبر سنه باصابة الرأي ، وجودة الفكرة . وقد صدق ظنهم ، فها هو النبي يعسكر في حنين في اثنى عشر الفاً ، اي بجيش لم تشهده العرب من قبل .

عسكر في حنين وهي تبعد عن مكة ثلاثة فراسخ ، وهو لا

يقصد ان يفاجيء الاعداء ليلاً ولكن الاعداء انتهزوا فرصة نزول الجيش في الوادي فاحاطوا به في الجبال ليلاً وشرعوا يضربون الجيش بالسهام والحجارة قبل انبلاج الفجر لدى استعدادهم للسير الى الطائف .

فاضطرب امر الجيش وفر الاعراب الذين اسلموا قريباً ولم يتمكن الايمان في قلوبهم ، ولولا ثبات النبي والمسلمين القدامي من المهاجرين والانصار الذين التفوا حوله في ساعة العسرة ، واقتحموا الاعداء وهم في مكامنهم ، لقضي على الاسلام .

* * *

اكتساب الحرب لا يكون بكثرة الجنود ولا بوفرة العدد ولا بصهيل الخيل ولمعان الاسنة ، وانما بالايمان والصبر والثبات والتضحية والرغبة في الموت والحذر واليقظة وانتهاز الفرصة .

وهذ الذي نص عليه الوحي الاسلامي :

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغني عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

« ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل الله جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين »

* * *

ها هو ذا النبي وجنوده يحاصرون الطائف وقد حفرت ثقيف وهوازن الخنادق بين الحصون فلم تستطع الجنود الاسلامية احتلال الطائف وكانوا كلما اقترب الجيش اخذوا يطلقون عليه السهام ،

فهم جد بصيرين بالرمي مما جعل النبي، القائد الخبير الا يظل بجنوده حيالهم خشية التداعي والملال وضعف معنوية الجيش . فتراجع الى الجعرانة حيث جمعت الغنائم والاسرى .

وكان عدد الاسرى ستة آلاف وبلغت الغنائم ٢٤٠٠٠ بعيراً و ٤٠٠٠٠ شاة و ٤٠٠٠ اوقية فضة .

وبعد ايام ظهرت حكمة تراجع النبي فان القوم اخذوا يفكرون في اسراهم واموالهم وليس لهم من طاقة ان يقاوموا الجيش وهم خارج الحصون، فرأت هوازن ان تسلم وقد بعثت الى النبي وفدها معلنين الاسلام طالبين اليه ان يطلق الاسرى ويرجع اليهم الاموال

فأشار اليهم النبي ان يختاروا احد شيئين : اما الاسرى واما الاموال . فانه يعسر على الجيش المكافح ، الباذل من ذات نفسه وماله ان يتخلى عن كل شيء .

رجع الوفد الى الطائف وبعد عشرة ايام عاد مؤثراً الاسرى على الاموال اذ في الاسرى نساؤهم واطفالهم وامهاتهم .

* * *

وقبل ان يعود النبي الى العاصمة نظم شؤون مكة من الناحيتين السياسية والدينية وولى عليها اسيد ثم عاد مظفراً منتصراً مستبشراً بنصر الله وفتحه .



الفصل الثالث عشر

انتهى الآن فتح مكة واصبح محمد حارس المواطن المقدسة وحاميها. اصبح في نظر القبائل العربية جمعاء، سيد الجزيرة المطلق وحيال الدول المجاورة لبلاد العرب.

وانك ترى في هذه الفترة التي تلت فتح مكة وعودة النبي الى العاصمة الوفود تترى من كل فج من فجاج الجزيرة تقدم اذعانها وتعلن اسلامها راضية مطمئنة فرحة بما تم على يد محمد للعرب من جمع الكلمة وتأسيس الدولة. فمحمد لم تلد مثله النساء فهو ايمن مولود جاءت به جزيرة العرب لم تعرف مثله لا من قبل ولا من بعد فهو آية الله في الارض وحجته الناطقة.

ومن الذين وفدوا على رسول الله وتلقوا عنه دروس الدين الجديد عروة بن مسعود امير ثقيف، ولما ظهر به من الحماس للاسلام وفهمه له انتدبه النبي ليكون واسطة لاسلام ثقيف وتعليمهم اياه. ولكن ثقيفاً غضبت على اميرها كل الغضب حين الفته يتنكر لدين ابائه ويتندر بآلهتها ويتفكه بتقاليدهم في مجالسهم، غضباً جعلهم يقتالونه.

ومنهم مسيلمة بن حبيب اليمامي الذي لم يستقر بعد عودته الى بلاده حتى طفق يعلن انه نبي مرسل وقد بعث الى محمد برسالة يقول له فيها « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله »

« اما بعد فاني قد اشركت في الامر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ».

فاجابه النبي بما يأتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى مسيلمه الكذاب

« السلام على من اتبع الهدى ، اما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

وقد اخذ النبي ينظم الجزيرة من الناحية السياسية والتشريعية فقد عين في كل قبيلة عاملين احدهما قانوني شرعي يعلم الناس التعاليم الجديدة ويفقههم في دساتيرها وما ينبغي ان يكونوا عليه ، والثاني اقتصادي يجمع اموال الزكاة وينفقها في مصارفها التي اوجبها الدستور.

وان كثيراً من الاعراب لم يفطنوا الى الحكمة الجليلة التي تشتمل عليها فريضة الزكاة ، فخالوها اتاوة كاتاوات قيصر وكسرى يفرضها محمد مقابل سلطته عليهم ولولا حكمة الدعاة وسعة افقهم وقدرتهم على افهام الحكمة المقصودة من فريضة الزكاة لما اطمأنوا اليها .

وقد جعلت السلطة التنفيذية في يد رؤساء القبائل . والنبي الى جانب ذلك كان كأحدث ما تكون عليه الدول في هذا العصر فكان يبعث المفتشين السريين والمراقبين الذين يكونون عيوناً على رجال الدولة الموظفين ومدى استمساكهم بحرفية القانون ونصوص التشريع

فالدولة لم تقم على هامش الاسلام بل هو قوامها وملاك حياتها ولو ان الاسلام انما جاء للعرب فحسب لصح الآن ان يعلن محمد ان رسالته انتهت وان الدور الذي امر بتمثيله من جانب الله قد احسن القيام به واداه خير اداء ، ولكن الاسلام انما هو دين انساني عالمي لم يأت لامة من امم الارض وحدها كالنصرانية تماماً فمحمد والمسيح اخوان يلتقيان في الخدمة الانسانية العامة وهداية الجميع .

ومحمد لم يعلن في ساعة من ساعات حياته انه اتى بدين غير ما

جـاء به موسي والمسيح فهو يدعو الى الايمان بالله واعظام الكتب المقدسة الالهية واحترام الانبياء بل وقد صلى ايضاً في بيت المقدس وجاء الثناء على هذا البيت في الكتاب ، فهو بيت مقدس ومشرف له مكانته الدينية في الاسلام .

بيد ان جماعة المسيحيين العرب الذين كانوا منتشرين في القبائل قد آلمهم هذا الدين الجديد واوجع نفوسهم فلم يطيقوا صبراً في الجزيرة بل هاجروا الى اخوانهم في الشام وطفقوا يشهرون بالاسلام ويكذبون على لسان محمد ويتزيدون على تعاليمه وانه ينتقص المسيح وامه ، مما دعا الامبراطور هرقل ان يجهز جيشاً جراراً مؤلفاً من مائة الف جندي حشده للقضاء على الدولة الاسلامية الناشئة ، جنوبي شرقي البحر الميت .

وكما ان هذه الحملة الرومية على الاسلام لم يكن لها من مبرر شرعي فان جزيرة العرب امنع من عقاب الجو وليس من الهين لجيش مهما كانت عدده وعدده ان يقتحمها .

على ان محمداً تجاه هذا العدوان الصارخ لم يجد بداً من اعداد العدد وجمع الجنود فاعلن في جزيرة العرب الجهاد المقدس وطلب الى المسلمين ان يتهيأوا للحرب ، والحر يومئذ كفوهة الجحيم والناس في حاجة الى الاستجمام واقتطاف ثمارهم والتفيؤ بظلالها الناعم ، ولكن نادى محمد واي مسلم يطيق صبراً بعد ندائه واي مسلم يرضى ان يستمتع بطيب ومحمد خرج الى الرمضاء تلفح وجهه ، يستقبل الصحراء بصدره الرحب لكي يشيد المجد لله والعز للانسانية ولكي يبني الاخوة العامة الشاملة ولكي يحمي عبادة الله وحده من العدوان عليها .

مرّ جيش النبي العرمرم وفرسانه الابطال المغاوير بالحجر

ديار ثمود فاصدر امره ان لا يتناول احد من مائه لانه كان موبوءاً .

وانك لتدهش حقاً ان جيشاً يقطع البيد الظامئة الماحلة التي لا تجد فيها رقعة من ظل ولا تحس بها نسمة ندية كما لا تجد جرعة ماء بارد ، جيشاً يبلغ العشرين الفاً ، يصدر قائده الاعلى، المطاع المحبب امره بأن لا يأخذ احد ماءً ، والماء يطرد امامهم ويتسلسل فلا تجنح عين ولا تمتد يد اليه .

حقاً ان جيشاً مطيعاً هذه الطاعة ، وان قائداً اعلى كمحمد الصابر الجلد لخليق ان يقذف الرعب في جيش اكبر دولة في عصره وهذا ما كان فان الجيش تراجع حين سمع بمقدم الجيش الاسلامي وعلى رأسه محمد .

نعم الجيش اياماً في ظلال تبوك الوارفة وطيب هوائها الطلق وروي من مائها العذب الصافي . وفي الفترة التي قضاها في تبوك التي هي الحدود الفاصلة حينذاك ما بين جزيرة العرب والشام ارسل النبي رسالة الى يوحنا صاحب ايلة ، بعد ان بلغه تقهقر جيش الروم فأقبل صاحب ايلة بذاته يحمل اليه ثمين الهدايا وغالي التحف ، مقدماً الطاعة . فأجرى النبي بينه وبين يوحنا معاهدة جاء فيها ما يلي :

١ — يتم السلام بين الدولة الاسلامية وبين يوحنا

٢ — يعطي محمد الأمن لامارة يوحنا والحماية

٣ — ليوحنا ان تدخل متاجره وسياراته في البر والبحر ولهم ذمة الله وذمة محمد ومن كان معهم ايضاً من اهل الشام واهل اليمن

٤ — لا يمنعون من طريق يسلكونه ، بر او بحر ، او ماء يردونه

٥ — كل من يرتكب جريمة منهم فان عليه تبعتها .

وكذلك قدم الطاعة والجزية مقابل حماية الدولة الاسلامية من

سلطان الروم جميع القبائل النصرانيه في اذرح والجرباء .

* * *

وقد نالت جميع القبائل التي تسكن في القسم الجنوبي من الشام المعاهدات التي ترجوها وتجد فيها احسن العلاقات والروابط بينها وبين الدول العربية الاسلامية ما خلا امارة دومة التي كانت تستثير الروم وتطلب اليهم مقاتلة محمد فانه ارسل لها كتيبة من الجند يرأسها خالد بن الوليد وثاب هو والجيش الى المدينة .

وقد سارع خالد الى دومة واقتحمها على حين غرّة واقتاد اميرها اكيدر بعد ان فتح له ابوابها وجمع الغنائم ولحق برسول الله .

* * *

وكم كان سرور المنافقين حين رأوا الجيش الاسلامي وعلى رأسه رسول الله يعود خالياً من الاسلاب والغنائم ، لم تقع بينه وبين الروم حرب . واعلنوا سرورهم ، ولكن الذي ساءهم واغمهم بعد ايام هو عودة خالد منتصراً ، يأتي بالغنائم والاسلاب بل يأتي باميردومة نفسه اسيراً وهو يرتدي حلل الديباج الموشاة بخالص العقيان .

وحين رأى المنافقون هذا النصر وهذه الاسلاب والغنائم تدرعوا بحسن السنتهم وجميل كلماتهم واخفوا ما في صدورهم من الغيظ الا ثلاثة من الرجال صدقوا رسول الله في تخلفهم وطلبوا اليه الصفح والمغفرة فأمر ان يقاطعوا حتى ينظر ما يأمر الله فيهم .

وبعد مدة ، وقد حبسوا انفسهم في المسجد ، جاء الوحي بالصفح عنهم والمغفرة :

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم ،

انه رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خُلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم » .

* * *

وكانت المفاوضات تجري بين النبي واهل الطائف . انهم يطلبون اليه آلهتهم اللات ثلاثة اعوام فقط . وحين رأوا اباءه الشديد ضرعوا اليه ان يجعلها شهراً واحداً فأبى ايضاً ، فطلبوا اليه ان يرسل هو من يهدمها لأنهم يخشون سخطها . فانتدب النبي ابا سفيان والمغيرة ابن شعبة لهدمها . وفي انتداب النبي لهذين الرجلين اللذين كانا الى ايام قلائل يقدسانها كل التقديس حكمة عظيمة .

تقدم ابو سفيان والمغيرة وهما يحملان المعول وقد التف حولهما اهل الطائف باكين خاشعين تخفق قلوبهم هلعاً وذعراً .

هذه خادثة الطائف ومعبودتها منذ اجيال واجيال كم ارسلت الى الطائف من خصب ، وكم بعثت فيه من نماء وكم سهرت في حراسة اهله واستجابة دعائهم وتلبية طلباتهم .

ها هو ذا ابو سفيان يحمل معوله وفي قلبه رجفة خفيفة ناعمة كتمها ما استطاع الى الكتم من سبيل وتقدم الى اللات ورفع المعول فكاد يسقط من يديه لكثرة بكاء الناس لولا ان رأى المغيرة ينظر اليه فاستحى وهوى عليها بضربة شديدة اطارت المعول من يديه او اطارتها اللات لا يدري !

وهوى على الارض والناس الذين كانت تفيض اعينهم بالدمع سرّوا كثيراً واعتقدوا في آلهتهم السطوة والقوة وانها صرعت ابا سفيان كبير قريش وقائد حروبها ، لولا ان تقدم المغيرة من اللات

وهوى عليها بضربة قاسية شديدة اطاحتها وطاحت معها قلوب الناس ثم جعلها جذاذاً .

وبالقضاء على اللات انتهت عبادة الاصنام والاوثان من جزيرة العرب بتاتاً وضفي الأمن الاسلامي بنوره وعدله وانسانيته وتسامحه على كل مكان ، واخذت راية الله تميد فوق الحصون والثكنات .

ميدي يا راية الله ميدي ! !



الفصل الرابع عشر

هذه اكبر تعبئة تجتمع في العاصمة وتخرج منها فيالق فيالق وعلى رأسها محمد . تعبئة لم تشهد مثلها جزيرة العرب من قبل ولم تسمع . ماذا يريد محمد من كل هذه الفيالق ، لعله يحاول فتح العالم او ان هناك عدواً حاشداً له يريد ان يبادره لا ، لا ، لم يكن شيء من ذلك .

ان حياة محمد قد برحها الجهاد الطويل وانهكها النضال وهو الآن تعب يحتاج الى الدعة والاستجمام قليلاً .

يريد ان يحج بالناس ، والحج عبادة قديمة في جزيرة العرب من بقايا دين ابراهيم ولئن دخلتها الوثنية وغيرت من معالمها الكثير ، الكثير ، الا ان محمداً طرح كل ما ادخلته الوثنية وارجع الحج الى صفائه الخالص حين فرضه الله في الحنيفية القديمة .

تسعون الفاً يؤمون بيت الله ملبين نداء الله ، امواج كامواج البحر ، صافية صفاء اللؤلؤ والماس ، قد نضرت وجوههم وصفت قلوبهم وطرحوا كل شهوات الدنيا وراءهم ظهرياً ومشوا في موكب رسول الله ، تنفحهم انوار السماء بعطورها ، وتظللهم الاملاك بأجنحتها ، تسعون الفاً ينامون في ذي الحليفة ، ويصبحون الصباح واذا هم يطرحون كل آثار الناس وما يجعلهم يتمايزون ، يحرمون بلباس واحد ، لا يمتاز به امير عن مأمور ولا يستبين به سيد او مسود ، الناس في شريعة الله سواسية كاسنان المشط لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى .

يتقدم محمد الحجيج ويسوق الهدي والناس من بين يديه ينادون نداءه ، طرحوا اسماء الآلهة القديمة وجعلوها تحت اقدامهم ، خلت

قلوبهم من تأليه شيء في السماء او الارض او عوالم الفضاء واجرامه غير الله الخالق لهذه الكائنات الواحد القاهر :

« لبيك اللهم لبيك ! لا شريك لك لبيك الحمد والنعمة والشكر لك لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » .

كان محمد هو المثل الاعلى لتلك الجماهير والقدوة المحتذاة، يراقبون اعماله وحركاته وسكناته وكل مايفعل او يتكلم به ، انهم يطوفون كما يطوف ، ويصلون في مقام ابراهيم كما صلى ، ويلثمون الحجر او يشيرون اليه عند بدء الطواف كما فعل ويسعون بين الصفا والمروة، ويقفون في عرفات كما وقف ، ويستمعون الى اكبر خطبة عالمية خالدة عرفتها الانسانية منذ نشأتها الى اليوم .

وقد مر على الاسلام ثلاثة عشر قرناً والناس يتدافعون في كل عام على طائراتهم وسياراتهم وعلى مراكبهم المختلفة من اوروبا الوسطى ومن الهند والصين ومن اعماق افريقيا ومن اقصى بلاد الترك ، من كل فج عميق ، يؤدون فريضة الحج كما اداها محمد منذ ثلاثة عشر قرناً ،ولئن قادهم محمد في المرة الاولى بنفسه فانه لا يزال يقودهم بروحه العالية الطهور ، وبمثله الانسانية العليا ، وباخلاقه الكريمة ، وتسامحه النادر .

وان صوته الجهوري العريض لا يزال يدوي في مسامع الاجيال بنبراته المقدسة واغراضه السامية ونداءاته الحرة العالية يوم وقفت به ناقته القصواء وهو يشير بيده الى الجماهير : معلناً انه لا يجتمع اليهم في هذا الموقف بعد هذا العام ابداً . وهي معجزة من معجزات الوحي . وانه ينادي الانسانية جمعاء في هذه الخطبة ، لا يخص بها امة دون امة ، واول شيء يقيم له وزناً

ومكانة في الشريعة الاسلامية هو حفظ الدماء والاموال : « وان دماءكم واموالكم حرام عليكم الى ان تلقوا ربكم ، كحرمة شهركم هذا ، في يومكم هذا ، في بلدكم هذا » والنبي يؤكد لهم انه يبلغ رسالة ربه الى الانسانية جمعاء وان هذا البلاغ سيصل الى كل اذن ما دارت الارض دورتها في هذا الفضاء . « ألا هل بلغت ؟ ! اللهم فاشهد » .

ولما كانت الامانة هي امثل خصال الانسانية وانبلها على الاطلاق طلب الى الناس اداءها : « فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها » . والربا ، الربا ، الذي هدم المساواة الاقتصادية بين البشر وجعل الفجوات الواسعة بين طبقات الامة وارّث العداوات يضعه النبي تحت قدميه ، ويعلن الناس جميعاً : « وان ربا الجاهلية موضوع وان اول ربا ابدأ به هو ربا عمي العباس بن عبد المطلب » كما قضى على ثارات الجاهلية وجعل حق العقوبة انما هو للسلطة المركزية للدولة « وان دماء الجاهلية موضوعة واول دم ابدأ به دم عامر بن ربيعة ابن الحارث » وها هو ذا في موقفه يحكم بالاعدام على كل تقاليد الجاهلية ومآثرها « وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية » ثم يقيم لحفظ الأمن قواعد القصاص والعقوبات فيجعل للقَوَدَ اي قتل العمدة الدية ولشبهه ما قتل بالعصا والحجر . وحدد دية الانسان عامة مائة بعير والذين يزيدون عن هذه الدية انما هم جناة مجرمون يفرقون بين افراد الاسرة الانسانية وهم من اهل الجاهلية . وانه يبدي ثقته بأن الناس ، بعد معرفة روح العقيدة الاسلامية ، لن يعبدوا دون الله احداً . وان الشيطان قد يئس ان يعبد في جزيرة العرب بعد اليوم ولكنه رضي ان يطاع في غير ذلك

مما يحقرون من اعمال . وحرم العبث بالنصوص الشرعية ، وتحويرها وتبديلها كما كانت الجاهلية تفعل في الاشهر الحرم ، فان شاءت ابقتها وان شاءت قدمتها او أخرتها وانه هو ذا يتلو عليهم « ايها الناس ان النسيئة زيادة في الكفر يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله » وانه يعلن حق المرأة على الجماهير في هذا الاجتماع وان لهن حقاً كما للرجال عليهن مثل ذلك . نعم يجب على المرأة ان تحافظ على عفافها وان تكون شريفة لا تدخل بيت زوجها احداً يكرهه الا باذنه كما حرم العضل والهجر في المضاجع والضرب المبرح الا اذا جاءت بفاحشة مبينة . كما اوجب للنساء على الرجال رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، والمرأة لم تعد سلعة كما كانت في الجاهلية تباع وتشرى بل انها اخذت بأمانة الله وتم عقد النكاح بكلمة الله.

واخيراً يستوصي بالنساء خيراً ويشهد الله بأنه بلغ ذلك الى الامة وهنا يعلن الاخوة الانسانية وحفظ الحقوق ويخاطب الناس جميعاً بقوله : « ايها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل مال احد لأخيه الا عن طيب نفس منه . ويعلن ان استباحة اراقة الدماء انما هي من اعمال الكفار « فلا ترجعوا بعده كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فاني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا بعده ، كتاب الله » وانه ينسخ كل مفاخرات الناس الرعناء ومفاضلاتهم ويرجعهم جميعاً الى الوحدة الحقيقية ، وحدة العقيدة بالله ووحدة العنصر « ان ربكم واحد ، وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربي فضل على اعجمي الا بالتقوى » .

وفي هذا اليوم العظيم نزلت عليه هذه الآية « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

* * *

عاد النبي الى المدينة هو واصحابه وفي ثيابه متاعب الايام والليالي التي قضاها مجاهداً مناضلاً داعياً الى الله . عاد تعباً وما كادت تمر الا بضعة اسابيع حتى مرض فعجب الناس كيف يمرض محمد ، وهل تمرض الرسل ونسوا انه انسان يمرض ويشفى. ويموت ككل انسان . وحين اشتد به المرض تطايرت الانباء في كل مكان وازدحمت المدينة بالعائدين والنبي مع كل ذلك لم ينس واجبه تجاه الدعوة ولم يدع التفكير في سبيل بقائها وحفظها وانتشارها .

انه يجهز جيشاً عظيماً ويؤمر عليه اسامة بن زيد ، قتيل غزوة مؤتة، يؤمّره وهو شاب حدث قد ناهز العشرين من عمره ، على كبار الرجال ليعوّد الشباب القيام بالعظائم وتحمل المسؤوليات والتبعات الجسام . وحسبك ان تدرك مدى هذا الجيش ان تعلم ان من جنوده امثال ابي بكر وعمر .

ولكن الجيش اجتمع في الجرف وهو مكان قريب من المدينة ولم يبرحها ، انتظاراً لشفاء رسول الله اذ اشتد به المرض .

وكانت فاطمة الزهراء ابنته تؤنسه في مرضه وترفه عنه . وفي يوم اسر لها كلمة فبكت ثم اسر اخرى فضحكت فعجبت عائشة من بكائها وضحكها معاً في ساعة واحدة متسائلة ما ابكاك واضحكك فابت ان تبيح سر رسول الله اليها. ولكن بعد انتقاله الى الرفيق الاعلى قالت لها : انه اخبرني في المرة الاولى انه سينتقل الى الله فبكيت فطمأنني في المرة الثانية وقال لي : ستكونين اول اهلي لحاقاً بي ، فضحكت .

وفي مرضه خرج مرة الى البقيع وزار المؤمنين الذين سبقوه ودعا لهم بقوله : « السلام عليكم يا اهل المقابر ، ليهنأ لكم ما اصبحتم

فيه بما اصبح النـاس فيه . اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها اولها ، الآخرة شر من الاولى » .

وحين ازدحم الناس حول المسجد بعد ان رأوا ابا بكر يصلي بهم وقـد خلى المحراب من النبي ضجروا وضجوا وازدحموا حول حجرات رسول الله وفي المسجد خائفين مضطربين ، فدخل العباس الى النبي وقص عليه ما شاهد من حال الناس وخوفهم ، فخرج اليهم متوكئاً على عليّ والفضل وجلس الى آخر مرقاة في منبره وخطب الناس .

* * *

وفي فجر يوم الاثنين والناس يؤدون صلاة الفجر في الغلس ، امر النبي برفع السجف واطل عليهم فكاد يفتتن الناس فرحاً برسول الله حتى ان ابا بكر تأخر عن المحراب ولكن النبي اشار اليهم ليتموا صلاتهم وأمر بارخاء السجف وهو يبتسم .

اعتقد ان قومـاً اجتمعوا في ظـلام الليل يؤدون فريضة الله رجالاً ونساءً ، خاشعين مؤمنين لن يضيع الاسلام من بين ايديهم ولن تقوى عليهم امم الارض . وما كادت الشمس تطلع وقـد بدا النبي كأحسن ما يكون وطلب اناء من الماء اخذ ينضح فيه يديه من شدة وطأة الحمى ويغسل وجهه والصحوة تزداد والنبي يشخص ببصره الى السماء وقد نضر وجهه واشرق واذا بعائشة التي قد اسند رأسه الى ركبتهـا ترى عينيه تلتمعـان ويزداد الى السماء نظراً ثم يسكن وهو يقول هاتين الكلمتين :

الى الرفيق الاعلى ! الى الرفيق الاعلى

—(انتهى الكتاب بحول الله)—

الفهرس

تصدر دار الانصاف المؤلفات التالية :

= الرياضة الحديثة : الجزء الاول والثاني (الطبعة الثانية)

للاستاذ عارف الجبال

= محمد ، حياته وتعاليمه . ترجمة الاستاذين : محمد صالح البنداق وهاشم الدفتر دار المدني

وهو الكتاب الوحيد الذي بحث السيرة النبوية من الناحية النفسية وآثرها في التعاليم الاسلامية . وقد وضعه باللغة الالمانية المطران تورا اندريه مطران مدينة ابسالا (بلاد السويد) ومدرس فلسفة اللاهوت في جامعتها .

= الى غرناطة (الطبعة الثانية) تأليف هاشم الدفتر دار المدني

دستور اصلاح الاسلام السياسي « « « « «

= اصلاح الاسلام الاقتصادي (الطبعة الثالثة منقحة)

تأليف هاشم الدفتر دار المدني

= سلسلة دراسة الاديان العالمية الكبرى يضعها الاساتذة :

محمد صالح البنداق وهاشم الدفتر دار المدني ومحمد علي الزعبي .